۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ
ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ
أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ)قبول و لا انزجار و لا تذكر و ادكار

إنما كان جوابهم المعارضة و المناقضة و التوعد لنبيهم الناصح و رسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه و التشريد عن بلده. فما كان جواب قومه (إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْ)

فكأنه قيل: ما نقمتم منهم و ما ذنبهم الذى أوجب لهم الإخراج فقالوا:-

(إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ)أى: يتنزهون عن اللواط و أدبار الذكور.

فقبحهم الله جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات و لم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به حتى وصلوا إلى إخراجهو البلاء موكل بالمنطق فهم قالوا:-

(أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ)و مفهوم هذا الكلام:-

«و أنتم متلوثون بالخبث و القذارة المقتضى لنزول العقوبة بقريتكم و نجاة من خرج منها»﴿٥٦﴾

و لهذا قال تعالى:(فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا
لِأَنَّهَا كَانَتْ رِدْءًا لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ و عَلَى طَرِيقَتِهِمْ فى رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى ضِيفَانِ لُوطٍ لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ لَا أَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ تَكْرِمَةً لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺلَا كَرَامَةَ لها .

*و ذلك لما جاءته الملائكة فى صورة أضياف و سمع بهم قومه فجاءوا إليه يريدونهم بالشر و أغلق الباب دونهم و اشتد الأمر عليه ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال

و أنهم جاءوا لاستنقاذه و إخراجه من بين أظهرهم و أنهم يريدون إهلاكهم و أن موعدهم الصبح

و أمروه أن يسرى بأهله ليلا إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم فخرج بأهله ليلا فنجوا و صبحهم العذاب فقلب الله عليهم ديارهم و جعل أعلاها أسفلها و أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ﴿٥٧﴾

و لهذا قال هنا:–(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ)بئس المطر مطرهم و بئس العذاب عذابهم لأنهم أُنْذِرُوا و خوفوا فلم ينزجروا و لم يرتدعوا فأحل الله بهم عقابه الشديد ﴿٥٨﴾

مظاهر قدرة الله 59-65

(قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ)الذى يستحق كمال الحمد و المدح و الثناء لـــ:–
كمال أوصافه و جميل معروفه و هباته و عدله و حكمته في عقوبته المكذبين و تعذيب الظالمين

(وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ)و سلم أيضا

(عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ)تخيرهم و اصطفاهم على العالمين من الأنبياء و المرسلين و صفوة الله من العالمين و ذلك لرفع ذكرهم و تنويها بقدرهم

(وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ)و سلامتهم من الشر و الأدناس و سلامة ما قالوه فى ربهم من النقائص و العيوب.

*عَلَى نعمه عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى وَ عَلَى مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ العُلى وَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَ اخْتَارَهُمْ وَ هُمْ رُسُلُهُ وَ أَنْبِيَاؤُهُ الْكِرَامُ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ

هَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَ غَيْرُهُ:-إِنَّ الْمُرَادَ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى:-هُمُ الْأَنْبِيَاءُ

قَالَ:وَ هُوَ كَقَوْلِهِ(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ180 وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ181 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[الصَّافَّات]

*وَ قَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَ لَا مُنَافَاةَ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَى فَالْأَنْبِيَاءُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَ الْأَحْرَى وَ الْقَصْدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ وَ مَنِ اتَّبَعَهُ بعد ما ذَكَرَ لَهُمْ مَا فعَلَ بِأَوْلِيَائِهِ مِنَ النَّجَاةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَ مَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ مِنَ الْخِزْيِ وَ النَّكَالِ وَ الْقَهْرِ أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلَى جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَ أَنْ يُسَلِّمُوا عَلَى عِبَادِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ.

(ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)؟ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى.

*و هذا استفهام قد تقرر و عرف أى: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألطاف خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه و هى ناقصة من كل وجه لا تنفع و لا تضر و لا تملك لأنفسها و لا لعابديها مثقال ذرة من الخير فالله خير مما يشركون ﴿٥٩﴾

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف و يتعين أنه الإله المعبود و أن عبادته هي الحق و عبادة ما سواه هى الباطل فقال:

(أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ)و ما فيها من الشمس و القمر و النجوم و الملائكة

(وَٱلْأَرْضَ)و ما فيها من جبال و بحار و أنهار و أشجار و غير ذلك.

(وَأَنزَلَ لَكُم)لأجلكم (مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ)بساتين

(ذَاتَ بَهْجَةٍ)حسن منظر من كثرة أشجارها و تنوعها و حسن ثمارها

(مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ)لولا منة الله عليكم بإنزال المطر.

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ)فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه و يشرك به؟

فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَ التَّدْبِيرِ؟ كَمَا قَالَ(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) [النَّحْلِ: 17]

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)يَجْعَلُونَ لِلَّهِ عِدْلًا وَ نَظِيرًا.

به غيره و يسوون به سواه مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوى و السفلى و منزل الرزق.

وَ هَكَذَا قَالَ تَعَالَى:(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَايِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) [الزُّمَرِ: 9]

أَيْ:-أَمَّنْ هُوَ هَكَذَا كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ؟وَ لِهَذَا قَالَ:(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ)[الزُّمَرِ: 9](أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)[الزُّمَرِ: 22] وَ قَالَ(أَفَمَنْ هُوَ قَايِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) [الرَّعْدِ: 33]

أَيْ:أَمَنْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِ الْخَلْقِ حَرَكَاتِهِمْ وَ سَكَنَاتِهِمْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَلِيلَهُ وَ حقِيرَهُ كَمَنْ هُوَ لَا يَعْلَمُ وَ لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا؟

وَ لِهَذَا قَالَ:-(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ) [الرَّعْدِ: 33] وَ هَكَذَا هَذِهِ الآيات الكريمات كلها﴿٦٠﴾

*هل الأصنام و الأوثان الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها و لا رزق و لا نفع خير أم الله ؟

(أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا)يستقر عليها العباد و يتمكنون من السكنى و الحرث و البناء و الذهاب و الإياب.

*قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً لَا تَمِيدُ وَ لَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا وَ لَا تَرْجُفُ بِهِمْ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا طَابَ عَلَيْهَا الْعَيْشُ وَ الْحَيَاةُ بَلْ جَعَلَهَا مِنْ فَضْلِهِ وَ رَحْمَتِهِ مِهَادًا بِسَاطًا ثَابِتَةً لَا تَتَزَلْزَلُ وَ لَا تَتَحَرَّكُ كَمَا قَالَ:-

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) [غَافِرٍ: 64]

(وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ)جعل فى خلال الأرض

(أَنْهَٰرًا)ينتفع بها العباد فى زروعهم و أشجارهم و شربهم و شرب مواشيهم.

(وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ)جبالا ترسيها و تثبتها لئلا تميد و تكون أوتادا لها لئلا تضطرب.

(وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ)البحر المالح و البحر العذب

(حَاجِزًا) يمنع من اختلاطهما فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما بل جعل بينهما حاجزا من الأرض جعل مجرى الأنهار فى الأرض مبعدة عن البحار فيحصل منها مقاصدها و مصالحها

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ)فعل ذلك حتى يعدل به الله و يشرك به معه.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)فيشركون بالله تقليدا لرؤسائهم و إلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئا﴿٦١﴾

(أَمَّن)هل يجيب(يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ)المضطرب الذى أقلقته الكروب و تعسر عليه المطلوب و اضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده(إِذَا دَعَاهُ)؟

(و) و من(وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ)أى: البلاء و الشر و النقمة إلا الله وحده؟

*أحمد 20636 عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَلْهُجَيْمِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِلَامَ تَدْعُو؟
قَالَ:أَدْعُو إِلَى اللهِ وَحْدَهُ الَّذِى إِنْ مَسَّكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَ عَنْكَ وَ الَّذِى إِنْ ضَلَلْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ دَعَوْتَهُ رَدَّ عَلَيْكَ وَ الَّذِى إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَ عَلَيْكَ "قَالَ: قُلْتُ: فَأَوْصِنِى
قَالَ:لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا وَ لَا تَزْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ وَ لَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ
وَ لَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِى وَ اتَّزِرْ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ
وَ إِيَّاكَ وَ إِسْبَالَ الْإِزَارِفَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ وَ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ

(وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ)

يمكنكم منها و يمد لكم بالرزق و يوصل إليكم نعمه و تكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم و يأتي بقوم بعدكم يُخْلفُ قَرنا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وخَلَفًا لِسَلَفٍ كَمَا قَالَ(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)[الأَنْعَام: 133]وَ قَالَ(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَبَعْضٍ دَرَجَاتٍ)[الأَنْعَام 165]
وَ قَالَ تَعَالَى:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً)[البَقَرَة: 30]
أَىْ: قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا قَدَّمْنَا تَقْرِيرَهُ. وَ هَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ)
أَىْ:أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ وَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ وَ قَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ.وَ لَوْ شَاءَ لَأَوْجَدَهُمْ كُلَّهُمْ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ
وَ لَمْ يَجْعَلْ بعضهم مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ بَلْ لَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ.
وَ لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ وَ لَكِنْ لَا يُمِيتُ أَحَدًا حَتَّى تَكُونَ وَفَاةُ الْجَمِيعِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ
فَكَانَتْ تَضِيقُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ وَ تَضِيقُ عَلَيْهِمْ مَعَايِشُهُمْ وَ أَكْسَابُهُمْ وَ يَتَضَرَّرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.
وَ لَكِنِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَ قُدْرَتُهُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُكْثِرَهُمْ غَايَةَ الْكَثْرَةِ وَ يَذْرَأَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَ يَجْعَلَهُمْ قُرُونًا بَعْدَ قُرُونٍ وَ أُمَمًا بَعْدَ أُمَمٍ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْأَجَلُ وَ تَفْرُغَ البَرية كَمَا قَدَّرَ ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
وَ كَمَا أَحْصَاهُمْ وعَدّهم عَدًّا ثُمَّ يُقِيمُ الْقِيَامَةَ و يُوفى كُلَّ عَامِلٍ عمله إذا بلغ الكتاب أَجَلَهُ

(أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ)يفعل هذه الأفعال؟لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك حتى بإقراركم أيها المشركون
*أَىْ: يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ يُعْبد وَ قَدْ عُلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِفِعْلِ ذَلِكَ
*و لهذا كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه و إزالته

(قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ)مَا أَقَلَّ تَذَكُّرَهُمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.
*أى: قليل تذكركم و تدبركم للأمور التى إذا تذكرتموها ادَّكرتم و رجعتم إلى الهدى و لكن الغفلة و الإعراض شامل لكم فلذلك ما ارعويتم و لا اهتديتم(٦٢)

(أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ)

من هو الذى يهديكم حين تكونون فى ظلمات البر و البحر حيث لا دليل و لا معلم يرى و لا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم و تيسيره الطريق و جعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها كَمَا قَالَ:-

(وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)[النَّحْلِ: 16] وَ قَالَ(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)[الْأَنْعَامِ: 97]

(وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ)أى:-المطر

فيرسلها فتثير السحاب ثم تؤلفه ثم تجمعه ثم تلقحه ثم تدره فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر.

*يُغِيثُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْدِبِينَ الْأَزِلِينَ الْقَنِطِينَ

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ)فعل ذلك؟ أم هو وحده الذى انفرد به؟فلم أشركتم معه غيره و عبدتم سواه؟

(تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)تعاظم و تنزه و تقدس عن شركهم و تسويتهم به غيره ٦٣

أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾
بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ
مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ
ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾
إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

(أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ)أى: من هو الذى يبدأ الخلق و ينشئ المخلوقات و يبتدئ خلقها ثم يعيد الخلق يوم البعث و النشور؟

*هُوَ الَّذِى بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ12 إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)[البُرُوج] وَقَالَ(وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)[الرُّوم: 27]

(وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ) بالمطر و النبات؟(أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ)يفعل ذلك و يقدر عليه؟

(قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ)حجتكم و دليلكم على ما قلتم(إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

و إلا فبتقدير أنكم تقولون:–إن الأصنام لها مشاركة له فى شىء من ذلك

فذلك مجرد دعوى صدقوها بالبرهان و إلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم فارجعوا إلى الأدلة اليقينية و البراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات و أنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

*وَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ وَ لَا بُرْهَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ:-

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)[المؤمنون: 117] ﴿٦٤﴾

(قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ)

يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السماوات و الأرض كقوله تعالى:(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

و كقوله:—(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ)إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب و نحوها اختص الله بعلمها فلم يعلمها ملك مقرب و لا نبى مرسل

و إذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر و البواطن و الخفايا فهو الذى لا تنبغى العبادة إلا له

*ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة منتقلا من شيء إلى ما هو أبلغ منه فقال:—

(وَمَا يَشْعُرُونَ)يدرون(أَيَّانَ)متى(يُبْعَثُونَ)البعث و النشور و القيام من القبور

أي: فلذلك لم يستعدوا وَ مَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ

كَمَا قَالَ:(ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً)[الأعراف: 187]أَيْ:ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ.

*مسلم 177-قَالَتْ عائشة رضى الله عنها:-

وَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ (أى النبى ﷺ)بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ وَ اللهُ يَقُولُ:-

(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ)[النمل: 65]﴿٦٥﴾

موقف المشركين من البعث 66-75

(بَلِ ادَّارَكَ)ضعف و قلَّ

(عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ)و لم يكن يقينا و لا علما واصلا إلى القلب و هذا أقل و أدنى درجة للعلم ضعفه و وهاؤه

*لَمْ يَنْفُذْ لَهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ عِلْمٌ أَنَّ عِلْمَهُمْ إِنَّمَا يُدرك وَ يَكْمُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ:-

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)[مَرْيَم: 38]

(بَلْ)ليس عندهم علم قوى و لا ضعيف

و إنما(هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا)أى: من الآخرة و الشك زال به العلم لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك

(بَلْ هُمْ مِنْهَا)أى: من الآخرة

(عَمُونَ)قد عميت عنها بصائرهم و لم يكن في قلوبهم من وقوعها و لا احتمال بل أنكروها و استبعدوها

*مسلم 8-قَالَ النبى ﷺ:فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ جبريل عليه السلام:-«مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»

*تَسَاوَى فِي الْعَجْزِ عَنْ دَرْك ذَلِكَ عِلْمُ الْمَسْؤُولِ والسائل.

*بل تكامل علمهم فى الآخرة فأيقنوا بالدار الآخرة و ما فيها من أهوال حين عاينوها و قد كانوا فى الدنيا فى شك منها بل عميت عنها بصائرهم﴿٦٦﴾و لهذا قال:—

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ)

أى:هذا بعيد غير ممكن قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة﴿٦٧﴾

(لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا)أى:—البعث(نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ)أى: فلم يجئنا و لا رأينا منه شيئا.

(إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ)قصص و أخبار(ٱلۡأَوَّلِينَ)التى تقطع بها الأوقات و ليس لها أصل و لا صدق فيها.

*فانتقل فى الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة

*ثم الإخبار بضعف علمهم فيها

*ثم الإخبار بأنه شك ثم الإخبار بأنه عمى

*ثم الإخبار بإنكارهم لذلك و استبعادهم وقوعه أى:–و بسبب هذه الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم فأقدموا على معاصى الله و سَهُلَ عليهم تكذيب الحق و التصديق بالباطل و استحلوا الشهوات على القيام بالعبادات فخسروا دنياهم و أخراهم﴿٦٨﴾

ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل فقال:–(قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ)

فلا تجدون مجرما قد استمر على إجرامه إلا و عاقبته شر عاقبة و قد أحل الله به من الشر و العقوبة ما يليق بحاله﴿٦٩﴾

(وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ)يا محمد على هؤلاء المكذبين و عدم إيمانهم

فإنك لو علمت ما فيهم من الشر و أنهم لا يصلحون للخير لم تأس و لم تحزن

(وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ)و لا يضق صدرك و لا تُقْلق نفسك(مِّمَّا يَمۡكُرُونَ)

فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)﴿٧٠﴾

(وَيَقُولُونَ)أى المكذبون بالمعاد و بالحق الذى جاء به الرسول مستعجلين للعذاب:–

(مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

و هذا من سفاهة رأيهم و جهلهم فإن وقوعه و وقته قد أجله الله بأجله و قدره بقدر فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم﴿٧١﴾

و لكن – مع هذا– قال تعالى محذرا لهم وقوع ما استعجلوه:–

(قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ)قَرُبَ(لَكُم)منكم و أوشك أن يقع بكم(بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ)من العذاب﴿٧٢﴾

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ)

ينبه عباده على سعة جوده و كثرة أفضاله و يحثهم على شكرها و مع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر و اشتغلوا بالنعم عن المنعم.73

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ) تنطوى عليه(صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ)

فليحذروا من عالم السرائر و الظواهر و ليراقبوه.(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) [الرَّعْد: 10]

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) [طه: 7] (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) [هُودٍ: 5] 74

(وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ)خفية و سر من أسرار العالم العلوى و السفلى(فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ)

(إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)

قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان و يكون إلى أن تقوم الساعة

*فكل حادث يحدث جلى أو خفى إلا و هو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ. وَ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [الحج: 70] 75

مهام القرآن 76-78

يخبر الله عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة و تفصيله و توضيحه لما كان فيها قد وقع عند بنى إسرائيل فقال:-

(إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ)يذكر أثناء آياته(عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)قصا(أَكْثَرَ)كثيرا من(ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عِيسَى وَ تَبَايُنِهِمْ فِيهِ فَالْيَهُودُ افْتَرَوْا وَ النَّصَارَى غَلَوا
فَجَاءَ إِلَيْهِمُ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسَطِ الْحَقِّ الْعَدْلِ:-أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَ أَنْبِيَائِهِ وَ رُسُلِهِ الْكِرَامِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَ السَّلَامِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) [مَرْيَمَ: 34]

*قصًا زال به الإشكال و بين به الصواب من المسائل المختلف فيها.

و إذا كان بهذه المثابة من الجلالة و الوضوح و إزالة كل خلاف و فَصَّل كل مشكل كان أعظم نعم الله على العباد و لكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر ٧٦

*و لهذا بين أن نفعه و نوره و هداه مختص بالمؤمنين فقال:-

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾
فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾
وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾
۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾
وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي
وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾
أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾
وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(وَإِنَّهُۥ لَهُدًى)من الضلالة و الغي و الشبه

(وَرَحۡمَةٌ)تنثلج له صدورهم و تستقيم به أمورهم الدينية و الدنيوية

(لِّلۡمُؤۡمِنِينَ)به المصدقين له المتلقين له بالقبول المقبلين على تدبره المتفكرين فى معانيه

فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم و الرحمة المتضمنة للسعادة و الفوز والفلاح﴿٧٧﴾

(إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي)سيفصل(بَيۡنَهُم)أى:- بين المختصين و سيحكم بين المختلفين

(بِحُكۡمِهِۦ)العدل و قضائه القسط فالأمور و إن حصل فيها اشتباه فى الدنيا بين المختلفين لــــ:-

1-خفاء الدليل

2-أو لبعض المقاصد فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها

(وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ)الذى قهر الخلائق فأذعنوا له(ٱلۡعَلِيمُ)بجميع الأشياء

(ٱلۡعَلِيمُ)بأقوال المختلفين و عن ماذا صدرت و عن غاياتها و مقاصدها و سيجازي كلا بما علمه فيه﴿٧٨﴾

مهمة الرسول وحدود تأثيره فى الناس 79-81

(فَتَوَكَّلۡ)اعتمد

(عَلَى ٱللَّهِ)ربك فى جلب المصالح و دفع المضار و فى تبليغ الرسالة و إقامة الدين و جهاد الأعداء.

(إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ)الواضح الذى على الحق يدعو إليه و يقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل

فإنه يسعى في أمر مجزوم به معلوم صدقه لا شك فيه و لا مرية.

*و أيضا فهو حق فى غاية البيان لا خفاء به و لا اشتباه

*و إذا قمت بما حملت و توكلت على الله فى ذلك فلا يضرك ضلال من ضل و ليس عليك هداهم ﴿٧٩﴾

فلهذا قال:–(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ)أى: حين تدعوهم و تناديهم و خصوصا

(إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ)فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم﴿٨٠﴾

(وَمَآ أَنتَ)أيها الرسول(بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ)مَن أعماه الله عن الهدى و الرشاد كما قال تعالى:–

(إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ)

(إِن تُسْمِعُ)و لا يمكنك أن تُسمع (إِلَّا مَن يُؤْمِنُ)يصدِّق

(بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)مطيعون مستجيبون لما دعوتهم إليه

أى: هؤلاء الذين ينقادون لك الذين يؤمنون بآيات الله و ينقادون لها بأعمالهم و استسلامهم كما قال تعالى:–

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)﴿٨١﴾

من مشاهد يوم القيامة 82-90

(وَإِذَا وَقَعَ)على الناس(ٱلْقَوْلُ)الذى حتمه الله و فرض وقته.

(عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً)خارجة (مِّنَ ٱلْأَرْضِ)أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء. و هذه الدابة

(تُكَلِّمُهُمْ)أى: تكلم العباد لأجل(أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ)فلقد ضعف علمهم و يقينهم بآيات الله

فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

و هذه الدابة هى الدابة المشهورة التى تخرج فى آخر الزمان و تكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث

و لم يأت دليل يدل على كيفيتها و لا من أي نوع هى

و إنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس و أن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة و أنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه و الله أعلم

*مسلم (2901) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ:-

اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ:-«مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا:-نَذْكُرُ السَّاعَةَ

قَالَ:إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ–فَذَكَرَ-

الدُّخَانَ وَ الدَّجَّالَ وَ الدَّابَّةَ وَ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا و نُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

وَ ثَلَاثَةَ خُسُوفٍ:-خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَ خَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَ خَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ

وَ آخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ "

*مسلم (2941)عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:-حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:-«إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَ خُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى وَ أَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا»﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن حالة المكذبين فى موقف القيامة و أن الله يجمعهم و يحشر من كل أمة من الأمم فقال:-

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا)طائفة كَقَوله(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ)[الصَّافَّاتِ22]وَ قَالَ(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)[التَّكْوِيرِ7]

(مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)يُدْفَعُونَ_وَزَعَةٌ تَرُدُّ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ_يُسَاقُونَ.

*يجمع أولهم على آخرهم و آخرهم على أولهم ليعمهم السؤال و التوبيخ و اللوم﴿٨٣﴾

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو)و حضروا قال لهم موبخا و مقرعا:-

(قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا)العلم أى: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق و أن لا تتكلموا إلا بعلم فكيف كَذَّبْتُم بأمر لم تحيطوا به علما؟

(أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

أى: يسألهم عن علمهم و عن عملهم فيجد عليهم تكذيبا بالحق و عملهم لغير الله أو على غير سنة رسولهم.

*وَ يُسْأَلُونَ عَنِ اعْتِقَادِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ فَلَمَّا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِوَ كَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ:-

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ31 وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)[الْقِيَامَةِ]

فَحِينَئِذٍ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ يَعْتَذِرُونَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

(هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ35 وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ36وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)[الْمُرْسَلَاتِ]﴿٨٤﴾

(وَوَقَعَ)حق(الْقَوْلُ)كلمة العذاب(عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا)بسبب ظلمهم الذى استمروا عليه و توجهت عليهم الحجة

(فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ)لأنه لا حجة لهم﴿٨٥﴾

(أَلَمْ يَرَوْا)يشاهدوا هذه الآية العظيمة و النعمة الجسيمة و هو تسخير الله لهم الليل و النهار

(أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ)بظلمته(لِيَسْكُنُوا فِيهِ)و يستريحوا من التعب و يستعدوا للعمل

(وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)بضيائه:- لينتشروا فيه فى معاشهم و تصرفاتهم.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)على كمال وحدانية الله و سبوغ نعمته﴿٨٦﴾

يخوف تعالى عباده ما أمامهم من يوم القيامة و ما فيه من المحن و الكروب و مزعجات القلوب فقال:-

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ)انزعج و ارتاع و ماج بسبب النفخ فيه

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ نَفْخَةِ الْفَزَعِ فى الصُّورِ وَ هُوَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ".

وَ فِي حَدِيثِ (الصُّورِ) أَنَّ إِسْرَافِيلَ هُوَ الَّذِى يَنْفُخُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَنْفُخُ فِيهِ أَوَّلًا نَفْخَةَ الْفَزَعِ وَ يُطَوِّلُهَا

وَ ذَلِكَ فِي آخِرِ عُمْرِ الدُّنْيَا حِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شَرَارِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ فَيَفْزَعُ

(مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ)أي: بعضهم ببعض خوفا مما هو مقدمة له.

(إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ)ممن أكرمه الله و ثبته و حفظه من الفزع.وَ هُمُ الشُّهَدَاءُ فَإِنَّهُمْ أَحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.

*مسلم(2940) عن يَعْقُوب بْنَ عَاصِمِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ يَقُولُ:-
سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو وَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ؟
تَقُولُ:إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا فَقَالَ:سُبْحَانَ اللهِ أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا –
لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أُحَدِّثَ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا إِنَّمَا قُلْتُ:

إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا يُحَرَّقُ الْبَيْتُ وَ يَكُونُ وَ يَكُونُ ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -
يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا
فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ
اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ
خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ(وسطه و داخل)جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ " قَالَ:-
سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَ أَحْلَامِ السِّبَاعِ

(قال العلماء معناه يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير وفي العدوان وظلم بعضهم بعضا في أخلاق السباع العادية)
لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟
فَيَقُولُونَ:-فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَ هُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ
ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَ رَفَعَ لِيتًا(أصغى أمال و الليت صفحة العنق و هي جانبه)
قَالَ:وَ أَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِه(يطينه ويصلحه)
قَالَ: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ – مَطَرًا
كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ(قال العلماء الأصح الطل وهو الموافق للحديث الآخر أنه كمني الرجال)-نُعْمَانُ الشَّاكُّ-فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ
ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ
ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ قَالَ:ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ فَيُقَالُ:-
مِنْ كَمْ؟فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَ تِسْعَةً وَ تِسْعِينَ
قَالَ فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ
*فَهَذِهِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ وَ هُوَ الْمَوْتُ.ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
وَ هُوَ النُّشُورُ مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(وَكُلٌّ)من الخلق عند النفخ في الصور

(أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ)صاغرين ذليلين لا يتخلف أحد عَنْ أَمْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ)[الإسراء: 52]

وَ قَالَ(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)[الروم: 25] كما قال تعالى:–

(إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا)

ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء و المرءوسون في الذل و الخضوع لمالك الملك(٨٧)

و من هوله(وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً)لا تفقد شيئا منها و تظنها باقية على الحال المعهودة

و هي قد بلغت منها الشدائد و الأهوال كل مبلغ و قد تفتت ثم تضمحل و تكون هباء منبثا.و لهذا قال:–

(وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ)من خفتها و شدة ذلك الخوف

*تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ أَيْ: تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا كَمَا قَالَ:-

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا 9وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)[الطُّورِ] وَ قَالَ(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا105فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا106 لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)[طَهَ] وَ قَالَ(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) [الْكَهْفِ: 47]

و ذلك (صُنۡعَ ٱللَّهِ)يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ

(ٱلَّذِيٓ)قَدْ (أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ)خَلَقَه وَ أَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ

(إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ)هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ فيجازيكم بأعمالكم ٨٨

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ
هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ
وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ
فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

28-سورة القصص-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ
لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ
يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾

ثم بين كيفية جزائه فقال:-(مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ)اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية

(فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا)هذا أقل التفضيل_بِالْإِخْلَاصِ_هِىَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ -وَ قَدْ بيّن فِي الْمَكَانِ الْآخَرِ أَنَّ لَهُ عَشْر أَمْثَالِهَا

(وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ)أى:-من الأمر الذى فزع الخلق لأجله آمنون و إن كانوا يفزعون معهم.

*كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)[الأنبياء: 103]وَ قَالَ:-

(أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[فُصِّلَت: 40] وَ قَالَ:(وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)[سَبَأ: 37]

(وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ)اسم جنس يشمل كل سيئة

(فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ)أى: ألقوا فى النار على وجوههم_مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسِيئًا لَا حَسَنَةَ لَهُ
أَوْ: قَدْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ كُلٌّ بِحَسْبِهِ

مهمة النبى ﷺ 91-93

و يقال لهم:(هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)90

قل لهم يا محمد(إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ)

أى: مكة المكرمة التى حرمها و أنعم على أهلها فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر و القبول.

(ٱلَّذِي حَرَّمَهَا)الَّذِى إِنَّمَا صَارَتْ حَرَامًا قَدَرًا وَ شَرْعًا بِتَحْرِيمِهِ لَهَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

*البخارى 1834 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-قَالَ النَّبِيُّ ﷺيَوْمَ افْتَتَحَ مَكَّةَ:
«لاَ هِجْرَةَ وَ لَكِنْ جِهَادٌ وَ نِيَّةٌ وَ إِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض

وَ هُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ إِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَ لَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَ لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَ لاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَ لاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا» قَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَ لِبُيُوتِهِمْ قَالَ:قَالَ: «إِلَّا الإِذْخِرَ»

(وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ)من العلويات وا لسفليات أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. كَمَا قَالَ:-

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)[يُونُس: 104]

وَ إِضَافَةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْبَلْدَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ لَهَا وَ الاِعْتِنَاءِ بِهَا كَمَا قَالَ:-

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ 3 الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)[قُرَيْش]

(وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ)الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ المطيعين له.

*أى: أبادر إلى الإسلام و قد فعل ﷺفإنه أول هذه الأمة إسلاما و أعظمها استسلاما﴿٩١﴾

(و)أمرت أيضا(وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ)عليكم

(ٱلۡقُرۡءَانَۖ)عَلَى النَّاسِ أُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ لتهتدوا به و تقتدوا و تعلموا ألفاظه و معانيه فهذا الذى على و قد أديته

*كَقَوْلِهِ:(ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)[آلِ عِمْرَان: 58] وَ كَقَوْلِه:-

(نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[الْقَصَص: 3] أَيْ: أَنَا مُبَلِّغٌ وَ مُنْذِرٌ

(فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ)نفعه يعود عليه و ثمرته عائدة إليه

*لِي سَوِيَّةُ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ وَ قَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ و خَلَصُوا مِنْ عُهْدَتِهِمْ وَ حِسَابُ أُمَمِهِمْ عَلَى اللَّهِ كَقَوْلِهِ(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)[الرَّعْد: 40] وَ قَالَ:-

(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)[هُود: 12]

(وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ)و ليس بيدى من الهداية شيء(وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ)﴿٩٣﴾

(وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ)

الذى له الحمد فى الأولى و الآخرة و من جميع الخلق خصوصا أهل الاختصاص و الصفوة من عباده فإن الذى ينبغى أن يقع منهم من الحمد و الثناء على ربهم أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم و كمال قربهم منه و كثرة خيراته عليهم.

(سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ)لِلَّهِ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ

*معرفة تدلكم على الحق و الباطل فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به فى الظلمات.

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)كقوله:-

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[فُصِّلَتْ53]

(وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ)بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال و الأحوال و علم مقدار جزاء تلك الأعمال و سيحكم بينكم حكما تحمدونه عليه و لا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

*وَ قَدْ ذُكِرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ إِمَّا لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ:
إِذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يَومًا فَلا تَقُل ... خَلَوتُ وَ لكن قُل عَليّ رَقيب ...
وَ لا تَحْسَبَنَ اللَّهَ يَغْفُل سَاعَةً ... وَ لا أَنَّ مَا يَخْفى عَلَيْه يَغيب .. ﴿٩٣﴾

28–تفسير سورة القصص–مكية–بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن قصة فرعون 1-6

(طسٓمٓ)﴿١﴾

(تِلۡكَ)الــ(ءَايَٰتُ)المستحقة للتعظيم و التفخيم

(ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ)لكل أمر يحتاج إليه العباد من:–

معرفة ربهم و معرفة حقوقه و معرفة أوليائه و أعدائه و معرفة و قائعه و أيامه و معرفة ثواب الأعمال و جزاء العمال

فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين و جلاها للعباد و وضَّحَها﴿٢﴾

و من جملة ما أبان قصة موسى و فرعون فإنه أبداها و أعادها فى عدة مواضع و بسطها في هذا الموضع فقال:

(نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ)خبر(مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ)فإن نبأهما غريب و خبرهما عجيب كَقَوله:-

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[يُوسُف: 3]أَيْ: نَذْكُرُ لَكَ الْأَمْرَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ كَأَنَّكَ تُشَاهِدُ وَ كَأَنَّكَ حَاضِرٌ

(لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)فإليهم يساق الخطاب و يوجه الكلام حيث إن معهم من الإيمان ما يُقْبلون به على تدبُّر ذلك و تلقِّيه بالقبول و الاهتداء بمواقع العبر و يزدادون به إيمانا و يقينا و خيرا إلى خيرهم

و أما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم و صانه اللّه عنهم و جعل بينهم و بينه حجابا أن يفقهوه﴿٣﴾

فأول هذه القصة:–

(إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ)فى ملكه و سلطانه و جنوده و جبروته فصار من أهل العلو فيها لا من الأعلين فيها

(وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا)طوائف متفرقة يتصرف فيهم بشهوته و ينفذ فيهم ما أراد من قهره و سطوته.

(يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ)

و تلك الطائفة هم بنو إسرائيل الذين فضلهم اللّه على العالمين الذين ينبغى له أن يكرمهم و يجلهم و لكنه استضعفهم بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم فصار لا يبالى بهم و لا يهتم بشأنهم و بلغت به الحال إلى أنه

(يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ)خوفا من أن يكثروا فيغمروه فى بلاده و يصير لهم الملك.

(إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ)الذين لا قصد لهم فى إصلاح الدين و لا إصلاح الدنيا و هذا من إفساده فى الأرض.

وَ كَانَتِ الْقِبْطُ قَدْ تَلَقَّوْا هَذَا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِيمَا كَانُوا يَدْرُسُونَهُ مِنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام حِينَ وَرَدَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ وَ جَرَى لَهُ مَعَ جَبَّارِهَا مَا جَرَى حِينَ أَخَذَ سَارَّةَ لِيَتَّخِذَهَا جَارِيَةً فَصَانَهَا اللَّهُ مِنْهُ وَ مَنَعَهُ مِنْهَا بِقُدْرَتِهِ وَ سُلْطَانِهِ.

فَبَشَّرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام وَلَدَهُ أَنَّهُ سَيُولَدُ مِنْ صُلْبِهِ وَ ذَرِّيَّتِهِ مَن يَكُونُ هَلَاكُ مَلِكِ مِصرَ عَلَى يَدَيْهِ فَكَانَتِ الْقِبْطُ تَتَحَدَّثُ بِهَذَا عِنْدَ فِرْعَوْنَ فَاحْتَرَزَ فِرْعَوْنُ مِنْ ذَلِكَ وَ أَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ لِأَنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ وَ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ٤ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ)

بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف و نهلك من قاومهم و نخذل من ناوأهم.

(وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً)فى الدين و ذلك لا يحصل مع استضعاف بل لا بد من تمكين فى الأرض و قدرة تامة

(وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ)للأرض الذين لهم العاقبة فى الدنيا قبل الآخرة.

وَ قَدْ فَعَلَ تَعَالَى ذَلِكَ بِهِمْ كَمَا قَالَ:-(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)[الأَعْرَاف: 137] وَ قَالَ:-

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)[الشُّعَرَاء: 59]

أَرَادَ فِرْعَوْنُ بِحَوْلِهِ وَ قُوَّتِهِ أَنْ يَنْجُوَ مِنْ مُوسَى فَمَا نَفَعَهُ ذَلِكَ مَعَ قَدَرِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِى لَا يُخَالَفُ أَمْرُهُ الْقَدَرِيُّ بَلْ نَفَذَ حُكْمُهُ وَ جَرَى قَلَمُهُ فِي الْقِدَمِ بِأَنْ يَكُونَ إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدَيْهِ بَلْ يَكُونُ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِى احْتَرَزْتَ مِنْ وُجُودِهِ وَ قَتَلْتَ بِسَبَبِهِ أُلُوفًا مِنَ الْوِلْدَانِ إِنَّمَا مَنْشَؤُهُ وَ مُرَبَّاهُ عَلَى فِرَاشِكَ وَ فِي دَارِكَ وَ غِذَاؤُهُ مِنْ طَعَامِكَ وَ أَنْتَ تُرَبِّيهِ وَ تُدَلِّلُهُ وَ تَتَفَدَّاهُ وَ حَتْفُكَ وَ هَلَاكُكَ وَ هَلَاكُ جُنُودِكَ عَلَى يَدَيْهِ لِتَعْلَمَ أَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا هُوَ الْقَادِرُ الْغَالِبُ الْعَظِيمُ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ الْمِحَالِ الَّذِى مَا شَاءَ كَانَ وَ مَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ٥

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ
إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ
إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ
فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ
كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ)فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة اللّه و جرت بها مشيئته

(وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ)وزيره(وَجُنُودَهُمَا)التى بها صالوا و جالوا و علوا و بغوا

(مِنْهُم)أى: من هذه الطائفة المستضعفة(مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ)من إخراجهم من ديارهم

و لذلك كانوا يسعون فى قمعهم و كسر شوكتهم و تقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك فكل هذا قد أراده اللّه

و إذا أراد أمرا سهل أسبابه و نهج طرقه و هذا الأمر كذلك

فإنه قدر و أجرى من الأسباب – التى لم يشعر بها لا أولياؤه و لا أعداؤه–ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود.

*ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَافَتِ الْقِبْطُ أَنْ يُفْنى بَنِى إِسْرَائِيلَ فَيَلُون هُمْ مَا كَانُوا يَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّة. فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ:-إِنَّهُ يُوشِكُ-إِنِ اسْتَمَرَّ هَذَا الْحَالُ -أَنْ يَمُوتَ شُيُوخُهُمْ وَ غِلْمَانُهُمْ لَا يَعِيشُونَ وَ نِسَاؤُهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُمْن بِمَا يَقُومُ بِهِ رِجَالُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فَيَخْلُصُ إِلَيْنَا ذَلِك.

فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْوِلْدَانِ عَامًا وَ تَرْكِهِمْ عَامًا فَوُلِدَ هَارُونُ عليه السلام فِي السَّنَةِ الَّتِي يَتْرُكُونَ فِيهَا الْوِلْدَان

وَ وُلِدَ مُوسَى عليه السلام فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْوِلْدَانَ وَ كَانَ لِفِرْعَوْنَ أُنَاسٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَ قَوَابِلُ يَدُرْنَ عَلَى النِّسَاءِ فَمَنْ رَأَيْنَهَا قَدْ حَمَلَتْ أَحْصَوُا اسْمَهَا فَإِذَا كَانَ وَقْتُ وِلَادَتِهَا لَا يَقْبَلُها إِلَّا نِسَاءُ الْقِبْطِ

فَإِذَا وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ جَارِيَةً تَرَكْنَهَا وَ ذَهَبْنَ وَ إِنْ وَلَدَتْ غُلَامًا دَخَلَ أُولَئِكَ الذبَّاحون بِأَيْدِيهِمُ الشِّفَارُ الْمُرْهَفَةُ فَقَتَلُوهُ وَ مَضَوْا قَبَّحَهُمُ اللَّهُ.

فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهِ﵇لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا مَخَايِلُ الْحَمْلِ كَغَيْرِهَا وَ لَمْ تَفْطِنْ لَهَا الدَّايَاتُ وَ لَكِنْ لَمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا وَ خَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا وَ أَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا وَ كَانَ مُوسَى﵇لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ

فَالسَّعِيدُ مَنْ أَحَبَّهُ طَبْعًا وَ شَرْعًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) [طه: 39]

فَلَمَّا ضَاقَتْ ذَرْعًا بِهِ أُلْهِمَتْ فِي سِرِّهَا وَ أُلْقِي فِي خَلَدِهَا وَ نُفِثَ فِي رَوْعِهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ:-

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

وَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ دَارُهَا عَلَى حَافَّةِ النِّيلِ فَاتَّخَذَتْ تَابُوتًا و مهدت فِيهِ مَهْدًا وَ جَعَلَتْ تُرْضِعُ وَلَدَهَا فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُ جَعَلَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ وَ سَيَّرَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَ رَبَطَتْهُ بِحَبْلٍ عِنْدَهَا.

فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْهَا مَنْ تَخَافُهُ فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ وَ أَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَ ذَهَلَتْ عَنْ أَنْ تَرْبِطَهُ( )

فَذَهَبَ مَعَ الْمَاءِ وَ احْتَمَلَهُ حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ فَالْتَقَطَهُ الْجَوَارِي فَاحْتَمَلْنَهُ فَذَهَبْنَ بِهِ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَ لَا يَدْرِينَ مَا فِيهِ وَ خَشِينَ أَنْ يَفْتَتْنَ عَلَيْهَا فِي فَتْحِهِ دُونَهَا.

فَلَمَّا كَشَفَتْ عَنْهُ إِذَا هُوَ غُلَامٌ مِنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ وَ أَجْمَلِهِ وَ أَحْلَاهُ وَ أَبْهَاهُ فَأَوْقَعَ اللَّهُ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِهَا حِينَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَ ذَلِكَ لِسَعَادَتِهَا وَ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ كَرَامَتِهَا وَ شَقَاوَةِ بَعْلِهَا وَ لِهَذَا قَالَ :-

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

٤٢٤- ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ ﴾ القصص: ٥ - ٦، هاتان الآيتان صدرت بهما سورة القصص، التي تحدثت عن المستضعفين -ومنهم موسى في نشأته صغيراً- وكيف مكن له الله في آخر أمره، وفي ذلك عزاء لإخواننا المستضعفين في فلسطين وغيرها فيما يلاقونه من بلاء وشدة، يعقبها قوة وتمكين بإذن الله.

٢٩٥) - [٣] إذا أردت أن ترى كيف ترسم خريطة النصر في ميدان الضعف والعجز؛ فاقرأ صدر سورة القصص: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ إلى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾.

(وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ)

فأول ذلك لما أوجد اللّه رسوله موسى الذى جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلى على يديه و بسببه و كان فى وقت تلك المخافة العظيمة التى يذبحون بها الأبناء أوحى إلى أمه أن ترضعه و يمكث عندها.

(خِفْتِ عَلَيْهِ)بأن أحسست أحدا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم

القاء موسى فى اليم و ما تلاه من أحداث 7-14

(فَأَلْقِيهِ فِى)أى نيل مصر فى وسط تابوت مغلق

(وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

هذا فيه نظر و الشاهد أنها ألقته عن عمد كما أمرت....الشيخ /مصطفى العدوى

فبشرها بأنه سيرده عليها و أنه سيكبر و يسلم من كيدهم و يجعله اللّه رسولا.

و هذا من أعظم البشائر الجليلة و تقديم هذه البشارة لأم موسى ليطمئن قلبها و يسكن روعها فإنها خافت عليه و فعلت ما أمرت به ألقته فى اليم فساقه اللّه تعالى ﴿٧﴾

(فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ)فصار من لقطهم و هم الذين باشروا وجدانه

(لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ)أى:-لتكون العاقبة و المآل من هذا الالتقاط أن يكون عدوا لهم و حزنا يحزنهم بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر و أن الذي خافوا منه من بنى إسرائيل قيض اللّه أن يكون زعيمهم يتربى تحت أيديهم و على نظرهم و بكفالتهم.

*و عند التدبر و التأمل:-تجد فى طى ذلك من المصالح لبنى إسرائيل و دفع كثير من الأمور الفادحة بهم و منع كثير من التعديات قبل رسالته بحيث إنه صار من كبار المملكة.

*و بالطبع إنه لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا و هو هو ذو الهمة العالية و الغيرة المتوقدة و لهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف– الذى بلغ بهم الذل و الإهانة إلى ما قص اللّه علينا بعضه – أن صار بعض أفراده ينازع ذلك الشعب القاهر العالي فى الأرض كما سيأتى بيانه.

و هذا مقدمة للظهور فإن اللّه تعالى من سنته الجارية أن جعل الأمور تمشى على التدريج شيئا فشيئا و لا تأتى دفعة واحدة.

*قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَ غَيْرُهُ:-"اللَّامُ" هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ لَا لَامُ التَّعْلِيلِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِالْتِقَاطِهِ ذَلِكَ. وَ لَا شَكَّ أَنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ يَقْتَضِي مَا قَالُوهُ وَ لَكِنْ إِذَا نُظِرَ إِلَى مَعْنَى السِّيَاقِ فَإِنَّهُ تَبْقَى اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَيَّضَهُمْ لِالْتِقَاطِهِ لِيَجْعَلَهُ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا فَيَكُونَ أَبْلَغَ فِي إِبْطَالِ حَذَرِهِمْ مِنْهُ

وهل ترك القرآن فصاحة لأحد ؟!

– قال الأصمعي لصَبيَّةٍ: ما أفصحك!

– فقالت: يا عَمِّ، وهل تركَ القرآن لأحد فصاحة؛ وفيه آيةٌ فيها خَبرانِ، وأمرانِ، ونهيانِ، وبِشَارَتَانِ!؟.

– فقال: وما هي؟

– قالت: قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾(١) القصص: ٧

– قال الأصمعي: فرجعتُ بفائدةٍ، وكأن تلك الآية ما مرت بمسامعي!.

وَ لِهَذَا قَالَ:(إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ)

أى:فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم و نكيد همجزاء على مكرهم و كيدهم.

*فلما التقطه آل فرعون:-حنَّن اللّه عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة(آسية بنت مزاحم)﴿٨﴾

(وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ)هذا الولد(قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ)أى: أبقه لنا لِتقرَّ به أعيننا و نسر به في حياتنا.

(لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا)أى:-لا يخلو:-

1-إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون فى نفعنا و خدمتنا

2-أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك نجعله ولدا لنا و نكرمه و نجله.

فقدَّر اللّه تعالى أنه نفع امرأة فرعون التى قالت تلك المقالة فإنه لما صار قرة عين لها و أحبته حبا شديدا فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر و نبأه اللّه و أرسله فبادرت إلى الإسلام و الإيمان به رضى اللّه عنها

٢٦٣) - [١] تأمل في روعة هذا الخطاب: متانةً ورقةً وإقناعًا: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ القصص:٩، ثم انظر كيف أثر في أعظم طاغية عرفه التاريخ البشري؟ فأين نساؤنا ورجالنا عن هذا الهدي القرآني الرفيع؟

*قال اللّه تعالى هذه المراجعات و المقاولات فى شأن موسى:-

(وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ)ما جرى به القلم و مضى به القدر من وصوله إلى ما وصل إليه و هذا من لطفه تعالى فإنهم لو شعروا لكان لهم و له شأن آخر ﴿٩﴾

و لما فقدت موسى أمه حزنت حزنا شديدا(وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ) من القلق الذى أزعجها على مقتضى الحالة البشرية مع أن اللّه تعالى نهاها عن الحزن و الخوف و وعدها برده.

(إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ)أى: بما فى قلبها(لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا)فثبتناها فصبرت ولم تبد به.

(لِتَكُونَ)بذلك الصبر و الثبات(مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر و ثبت ازداد بذلك إيمانه و دل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه﴿١٠﴾

(وَقَالَتۡ)أم موسى(لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ)أى: اذهبى فقصى الأثر عن أخيك و ابحثى عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه

(فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ)أى: أبصرته على وجه كأنها مارة لا قصد لها فيه.

و هذا من تمام الحزم و الحذر فإنها لو أبصرته و جاءت إليهم قاصدة لظنوا بها أنها هي التي ألقته فربما عزموا على ذبحه عقوبة لأهله﴿١١﴾

(وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ)و من لطف اللّه بموسى و أمه أن منعه من قبول ثدى امرأة فأخرجوه إلى السوق رحمة به و لعل أحدا يطلبه فجاءت أخته و هو بتلك الحال

(فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ)

و هذا جُلُّ غرضهم فإنهم أحبوه حبا شديدا و قد منعه اللّه من المراضع فخافوا أن يموت

فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب فى أهل هذا البيت بتمام حفظه و كفالته و النصح له بادروا إلى إجابتها فأعلمتهم و دلتهم على أهل هذا البيت﴿١٢﴾

(فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ)كما وعدناها بذلك

(كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ)

بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة تفرح به و تأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك

(وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ)

فأريناها بعض ما وعدناها به عيانا ليطمئن بذلك قلبها و يزداد إيمانها و لتعلم أنه سيحصل وعد اللّه فى حفظه و رسالته

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)و لكن أكثر المشركين لا يعلمون أن وعد الله حق.

*فإذا رأوا السبب متشوشا شوش ذلك إيمانهم لعدم علمهم الكامل أن اللّه تعالى يجعل المحن الشاقة و العقبات الشاقة بين يدى الأمور العالية و المطالب الفاضلة

فاستمر موسى ﷺعند آل فرعون يتربى فى سلطانهم و يركب مراكبهم و يلبس ملابسهم و أمه بذلك مطمئنة قد استقر أنها أمه من الرضاع و لم يستنكر ملازمته إياها و حنوها عليها.

و تأمل هذا اللطف و صيانة نبيه موسى من الكذب فى منطقه و تيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه و بينها الذي بان للناس أنه هو الرضاع الذى بسببه يسميها أُمًّا فكان الكلام الكثير منه و من غيره في ذلك كله صدقا و حقا.

*حُكْمَ اللَّهِ فِي أَفْعَالِهِ وَ عَوَاقِبَهَا الْمَحْمُودَةَ الَّتِى هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَرُبَّمَا يَقَعُ الْأَمْرُ كَرِيهًا إِلَى النُّفُوسِ وَ عَاقِبَتُهُ مَحْمُودَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَمَا قَالَ(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىأَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) [الْبَقَرَة: 216]وَ قَالَ تَعَالَى:(فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)[النساء: 19]﴿١٣﴾

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ
مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ
عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ
فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ
بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ)من القوة و العقل و اللب و ذلك نحو أربعين سنة فى الغالب

(وَٱسْتَوَىٰٓ)كملت فيه تلك الأمور

(ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ۚ)يعرف به الأحكام الشرعية و يحكم به بين الناس(وَعِلْمًا)كثيرا

(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)فى عبادة اللّه المحسنين لخلق اللّه نعطيهم علما و حكما بحسب إحسانهم

و دل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام ﴿١٤﴾

قتل موسى للقبطى خطأ و خروجه من مصر 15-21

(وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا)إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التى بها يغفلون عن الانتشار

(فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ)أى: يتخاصمان و يتضاربان

(هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ)أى:—من بنى إسرائيل(وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ)القبط.

(فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ)

لأنه قد اشتهر و علم الناس أنه من بنى إسرائيل و استغاثته لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغا يخاف منه و يرجى من بيت المملكة و السلطان.

(فَوَكَزَهُۥ)ضَرَبَ بِجَمْعِ كَفّه(مُوسَىٰ)الذى من عدوه استجابة لاستغاثة الإسرائيلى

(فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ)أى:–أماته من تلك الوكزة لشدتها و قوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه

و (قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ)أى:من تزيينه و وسوسته

(إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ)فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة و حرصه على الإضلال ﴿١٥﴾

ثم استغفر ربه فـ(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

خصوصا للمخبتين المبادرين للإنابة و التوبة كما جرى من موسى عليه السلام

إن ندم موسى حمله على الخضوع لربه و الاستغفار عن ذنب باء به عنده تعالى فغفر الله خطأه ذلك

قال قتادة :-عرف— و الله -المخرج فاستغفر.

﴿١٦﴾فـــ(قَالَ)موسى:–

(رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ)بالتوبة و المغفرة و النعم الكثيرة

(فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا)معينا و مساعدا(لِّلۡمُجۡرِمِينَ)لا أعين أحدا على معصية

و هذا وعد من موسى عليه السلام بسبب منة اللّه عليه أن لا يعين مجرما كما فعل فى قتل القبطى.

و هذا يفيد أن النعم تقتضى من العبد فعل الخير و ترك الشر

بعض الناس كلما أراد أن يتقدَّم فى حياته تذكَّر بعض زلاته فى الماضى فتراجع و هذا خطأ

فالعبرة بكمال النهاية انظروا إلى موسى عليه السلام قتل نفسًا لم يُؤمَر بقتلها و لم يمنعه هذا من التصحيح

بل قال (رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ)و نال شرف الرسالة و قام بأعبائها فإياكم و اليأس ﴿١٧﴾

(فـ) لما جرى منه قتل الذى هو من عدوه

(فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ)يتلفت و يتوقع ما يكون من هذا الامر

*هل يشعر به آل فرعون أم لا؟و إنما خاف لأنه قد علم أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من

بني إسرائيل. فبينما هو على تلك الحال (فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ)على قبطى آخر.

(قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ)موبخا له على حاله :–

(إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ) ظَاهِرُ الغواية ظاهر الجراءة كَثِيرُ الشَّرِّ ﴿١٨﴾

(فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ)موسى(بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا) أى: له و للمخاصم المستصرخ

أى:لم يزل اللجاج بين القبطى و الإسرائيلى و هو يستغيث بموسى فأخذته الحمية حتى هم أن يبطش بالقبطى

(قَالَ)القول الاول:–(أى الاسرائيلى):–

*ثُمَّ عَزَمَ عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقِبْطِيِّ فَاعْتَقَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لخورِه وَ ضَعْفِهِ وَ ذِلَّتِهِ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يُرِيدُ قَصْدَهُ لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ فَقَالَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ:-(يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ)

وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لم يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَ مُوسَى عليه السلام فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقِبْطِيُّ لقفها مِنْ فَمِهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ فَأَلْقَاهَا عِنْدَهُ فَعَلِمَ بِذَلِكَ فَاشْتَدَّ حَنَقُهُ وَ عَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى فَطَلَبُوهُ فَبَعَثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضِرُوهُ لِذَلِكَ.

القول الثانى(أى القبطى):- له القبطى زاجرا له عن قتله:

(يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ)

لأن من أعظم آثار الجبار فى الأرض قتل النفس بغير حق.

(وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ)و إلا فلو أردت الإصلاح لحلت بينى و بينه من غير قتل أحد

فانكف موسى عن قتله و ارعوى لوعظه و زجره و شاع الخبر بما جرى من موسى فى هاتين القضيتين حتى تراود ملأ فرعون و فرعون على قتله و تشاوروا على ذلك(١٩)

و قيض اللّه ذلك الرجل الناصح و بادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رَأْىُ ملئهم. فقال:-

(وَجَآءَ رَجُلٞ)

وَصَفَهُ بالرّجُولية لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بُعثوا وَرَاءَهُ فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى

(مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ)منف (عاصمة مصر)

(يَسۡعَىٰ)أى:-ركضا على قدميه من نصحه لموسى و خوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر

فـــــــ(قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ)يتشاورون فيك

(لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ)عن المدينة (إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ)فامتثل نصحه.

*لَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَ دَوْلَتُهُ فِي أَمْرِهِ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَحْدَهُ وَ لَمْ يَأْلَفْ ذَلِكَ قَلْبُهُ بَلْ كَانَ فِي رَفَاهِيَةٍ وَ نِعْمَةٍ وَ رِئَاسَةٍ(٢٠)

٢٦٤) – [٢] ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ القصص:٢٠، فيه دليل على جواز النميمة لمصلحة دينية.

٤٢٧– ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾القصص: ٢٠، انظر كيف جمعت هذه الآية صفات الدعاة الناصحين: حرص على مصلحة الناس، ودفع ما يضرهم، ويتحملون التعب والمشقة من أجلهم، ويقترحون الحلول المناسبة لحل المشاكل.

(فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ)أن يوقع به القتل و دعا اللّه و (قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ.
فَذَكَرُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ لَهُ مَلَكًا عَلَى فَرَسٍ فَأَرْشَدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

*فإنه قد تاب من ذنبه و فعله غضبا من غير قصد منه للقتل فَتَوعُّدُهُمْ له ظلم منهم و جراءة(٢١)

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾
وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ
إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا
فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ)أى: قاصدا بوجهه (مَدْيَنَ)و هو جنوبى فلسطين حيث لا ملك لفرعون

(قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ)وسط(ٱلسَّبِيلِ)الطريق المختصر الموصل إليها بسهولة و رفق

دخول موسى أرض مدين 22-28

فهداه اللّه سواء السبيل فوصل إلى مدين﴿٢٢﴾

(وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ)مواشيهم و كانوا أهل ماشية كثيرة

(وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ)أي: دون تلك الأمة

(ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ)تُكَفْكِفَانِ غَنَمَهُمَا أَنْ تَرِدَ مَعَ غَنَمِ أُولَئِكَ الرِّعَاءِ لِئَلَّا يُؤْذَيا لـــــ:-

1-عجزهما عن مزاحمة الرجال و بخلهم 2-و عدم مروءتهم عن السقي لهما.

(قَالَ)لهما موسى (مَا خَطْبُكُمَاۖ)شأنكما بهذه الحالة(الخَطْبُ: الشأنُ، و الأَمْرُ صَغُرَ أو عظُمَ ج: خُطُوبٌ)

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ)

أى:قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقى حتى يصدر الرعاء مواشيهم فإذا خلا لنا الجو سقينا

(وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)أى: لا قوة له على السقى فليس فينا قوة نقتدر بها و لا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

فرق لهما موسى عليه السلام و رحمهما فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَى مَا تَرَى﴿٢٣﴾

٢٦٦) – [٤] ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ ...﴾ القصص:٢٢، ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ ...﴾ البقرة:٢٥٠، المتأمل لهذه الآيات وأمثالها يلحظ اقتران الدعاء بالعمل، دون الاقتصار على أحدهما، وهو منهج للأنبياء مطرد، كما حدث في بدر وأحد.

(فَسَقَىٰ لَهُمَا) غير طالب منهما الأجرة و لا له قصد غير وجه اللّه تعالى

المصنف لابن أبي شيبة:-عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه:-أَنْ مُوسَى عليه السلام لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ قَالَ:-فَلَمَّا فَرَغُوا أَعَادُوا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبِئْرِ وَ لَا يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلَّا عَشَرَةُ رِجَالٍ فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتَاهُ فَأَتَى الْحَجَرَ فَرَفَعَهُ ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِ إِلَّا ذَنُوبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوِيَتِ الْغَنَمُ.

*فلما سقى لهما و كان ذلك وقت شدة حر وسط النهار بدليل مستريحا لذلك قوله:-

(ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ)الظلال بعد التعب(فَقَالَ)فى تلك الحالة مسترزقا ربه:-

(رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)إنى مفتقر للخير الذى تسوقه إلىَّ و تيسره لى.

*و هذا سؤال منه بحاله و السؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال فلم يزل فى هذه الحالة داعيا ربه متملقا.

و أما المرأتان فذهبتا إلى أبيهما و أخبرتاه بما جرى.فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى

٢٦٧) – [٥] ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ القصص:٢٤، إخلاص وشهامة، وبعد عن حب الظهور، وترك لطلب المقابل، ومع ذلك جاءه الخير وهو في ظله: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ القصص:٢٥.

٣٥٩- أيُّها القلب الحزين: إياك أن تنسى العليَّ، كن مثل كليم الرحمن، خرج خائفًا، سافر راجلًا، اخضر جوعًا، فنادى منكسرًا: ﴿رَبِّ﴾، فحذف ياء النداء ﴿إِنِّى﴾ لتأكيد المسكنة، ولم يقل: أنا، ﴿لِمَآ﴾ لأيِّ شيء ﴿أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ بصيغة الماضي لشدَّة يقينه بالإجابة، فكأنَّها تحقَّقت، ﴿مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، فكان جزاءُ هذا الانكسار التام: أهلًا ومالًا، ونبوَّةً وحفظًا.

٤٢٨– في قول موسى –عليه السلام– بعد أن سقى للمرأتين: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ القصص: ٢٤، قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: كان قد بلغ به الجوع ما بلغ، وإنه لأكرم الخلق يومئذ على الله.

فعلق ابن عطية قائلاً: وفي هذا معتبر، وحاكم بهوان الدنيا على الله تعالى!

٤٢٩– في قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ القصص: ٢٤، إشارة إلى سبب عظيم من أسباب إجابة الدعاء، وهو إظهار الافتقار إلى الله – عز وجل –.

*قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَارَ مُوسَى مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلُ وَ وَرَقُ الشَّجَرِ وَ كَانَ حَافِيًا فَمَا وَصَلَ مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمِهِ. وَ جَلَسَ فِي الظِّلِّ وَ هُوَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَ إِنَّ بَطْنَهُ لَاصِقٌ بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ وَ إِنَّ خُضْرَةَ الْبَقْلِ لَتُرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ وَ إِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ.

*لَمَّا رَجَعَتِ الْمَرْأَتَانِ سِرَاعًا بِالْغَنَمِ إِلَى أَبِيهِمَا أَنْكَرَ حَالَهُمَا و مجيئهما سريعا فسألهما عن خَبَرِهِمَا فَقَصَّتَا عَلَيْهِ مَا فَعَلَ مُوسَى عليه السلام.فَبَعَثَ إِحْدَاهُمَا إِلَيْهِ لِتَدْعُوَهُ إِلَى أَبِيهَا ٢٤ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-

(فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ) مَشْىَ الْحَرَائِرِ

و هذا يدل على كرم عنصرها و خلقها الحسن فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة و خصوصا فى النساء.

و يدل على أن موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقى بمنزلة الأجير و الخادم الذى لا يستحى منه عادة و إنما هو عزيز النفس رأت من حسن خلقه و مكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه

كَمَا رُوِىَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ:-كَانَتْ مستترة بِكُمِّ درْعها.

وَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ عُمَرَ بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ:-قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه:-جَاءَتْ تَمْشى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَائِلَةً بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ ( ) خَرَّاجة وَلَاجَّةً

٤٣٠– ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ القصص: ٢٥، وصفها بالحياء في مشيها خصوصا، وهذا فيه توجيه للمرأة المسلمة؛ فالمشي عند المرأة يدل على شخصيتها بل يدل على عفافها من عدمه.

فانتبهي أختي الكريمة للمشي فهو ليس أمرا هامشيا في حياة المرأة بل هو أمر مهم ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه.

ثم قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ﴾ القصص: ٢٥، ولم تقل: إننا ندعوك، لأن هذا هو اللائق بالمؤمنة العفيفة حينما تتحدث مع الرجال الغرباء.

فــ(قَالَتۡ)له:–

(إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا)أى:لا لِيمُنَّ عليك بل أنت الذى ابتدأتنا بالإحسان

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: السَّلْفَعُ مِنَ الرِّجَالِ:-الْجَسُورُ و مِنَ النِّسَاءِ: الْجَرِيئَةُ السَّلِيطَةُ، وَ مِنَ النُّوقِ: الشَّدِيدَةُ.

و إنما قصده أن يكافئك على إحسانك فأجابها موسى.

(فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ)من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه

(قَالَ)مسكنا روعه جابرا قلبه:-

(لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

ليذهب خوفك و روعك فإن اللّه نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان٢٥

(قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا)أي:-إحدى ابنتيه (يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ)أي:-اجعله أجيرا عندك يرعى الغنم و يسقيها

(إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ)أي:-إن موسى أولى من استؤجر فإنه جمع القوة و الأمانة

و خير أجير استؤجر من جمعهما أي:-القوة و القدرة على ما استؤجر عليه و الأمانة فيه بعدم الخيانة

و هذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما

و أما باجتماعهما فإن العمل يتم و يكمل و إنما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقى لهما

و نشاطه ما عرفت به قوته وشاهدت من أمانته و ديانته و أنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما و إنما قصده

بذلك وجه اللّه تعالى.

*قَالَ عدد من العلماء:-لَمَّا قَالَتْ: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأمِينُ}قَالَ لَهَا أَبُوهَا:-وَ مَا عِلْمُكِ بِذَلِكَ؟

قَالَتْ:إِنَّهُ رَفَعَ الصَّخْرَةَ الَّتِى لَا يَطِيقُ حَمْلَهَا إِلَّا عَشَرَةُ رِجَالٍ وَ إِنَّهُ لَمَّا جِئْتُ مَعَهُ تقدمتُ أمامهُ

فَقَالَ لِي:-كُونِى مِنْ وَرَائِي فَإِذَا اجْتَنَبْتُ الطَّرِيقَ فَاحْذِفِي لِي بِحَصَاةٍ أَعْلَمُ بِهَا كَيْفَ الطَّرِيقُ لِأَتَهَدَّى إِلَيْهِ٢٦

٤٣١- أركان الولاية اثنان: القوة، والأمانة: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ القصص: ٢٦، ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾ النمل: ٣٩، فمن العدل ألَّا يولى أحد منصباً إلا وهو أهل له في قوته وفي أمانته، فإن ولى من ليس أهلاً مع وجود من هو خير منه فليس بعادل.

٢٦٨) - [٦] تأمل كم تكرر وصف القوة والأمانة في القرآن لسادات الخلق:

جبريل، وموسى، ويوسف، وغيرهم!

إنها فرصة لتربية أبنائنا على هذا المعنى الشريف -وهم يستعدون للاختبارات- وتذكيرهم بشدة حاجة الأمة للطالب القوي في علمه وتحصيله، الجاد في أداء عمله، وأن التفوق الدراسي ليس مطلبا اجتماعيا بل هو - قبل ذلك- مطلب شرعي، فالساحة ملأى بالكسالى!

(قَالَ)صاحب مدين لموسى(إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي)تصير أجيرا عندى

(ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ)سنين(فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ)تبرع منك لا شيء واجب عليك.

(وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ)

فأحتم عشر السنين أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالا شاقة و إنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه

(سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)لَا أُشَاقُّكَ وَ لَا أُؤَاذِيكَ وَ لَا أُمَارِيكَ.

*فرغبه فى سهولة العمل و فى حسن المعاملة و هذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغى له أن يحسن خلقه مهما أمكنه و أن الذى يطلب منه أبلغ من غيره(٢٧)

فـــــــ(قَالَ)موسى عليه السلام– مجيبا له فيما طلبه منه–:–

(ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ)أى: هذا الشرط الذى أنت ذكرت رضيت به و قد تم فيما بينى و بينك

(أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ)سواء قضيت الثمانى الواجبة أم تبرعت بالزائد عليها

(وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ)حافظ يراقبنا و يعلم ما تعاقدنا عليه.

و هذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين ليس بشعيب النبى المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس فإن هذا قول لم يدل عليه دليل و غاية ما يكون أن شعيبا عليه السلام قد كانت بلده مدين و هذه القضية جرت فى مدين فأين الملازمة بين الأمرين؟

و أيضا فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب فكيف بشخصه؟

*و لو كان ذلك الرجل شعيبا لذكره اللّه تعالى و لسمته المرأتان و أيضا فإن شعيبا عليه السلامقد أهلك اللّه قومه بتكذيبهم إياه و لم يبق إلا من آمن به و قد أعاذ اللّه المؤمنين أن يرضوا لبنتى نبيهم بمنعهما عن الماء و صد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما و يسقي ماشيتهما

*و ما كان شعيبعليه السلام ليرضى أن يرعى موسى عنده و يكون خادما له و هو أفضل منه و أعلى درجة و الله أعلم إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة و على كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبيعليه السلام بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم

*البخارى 2684 - عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ:-سَأَلَنِى يَهُودِىٌّ مِنْ أَهْلِ الحِيرَةِ أَىَّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟قُلْتُ:- لاَ أَدْرِى حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى حَبْرِ العَرَبِ(المراد ابن عباس رضي الله عنهما والحبر هو العالم في الدين) فَأَسْأَلَهُ فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ:-«قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَ أَطْيَبَهُمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ(المراد كل رسول ويتناول هذا موسى عليه السلامبالأولى لأن الكلام عنه) إِذَا قَالَ فَعَلَ»(٢٨)

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ
إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ
إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ
يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ
سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾
وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ
بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

عودة موسى إلى مصر بالنبوة و معجزاته 29-32

(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ)

يحتمل أنه قضى الأجل الواجب أو الزائد عليه كما هو الظن بموسى و وفائه اشتاق إلى الوصول إلى أهله و والدته و عشيرته و وطنه و علم من طول المدة أنهم قد تناسوا ما صدر منه.

(وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ)قاصدا مصر(ءَانَسَ)أبصر

(مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ)نبأ

(أَوۡ جَذۡوَةٖ)قطعة(مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ)تستدفئون و كان قد أصابهم البرد و تاهوا الطريق﴿٢٩﴾

٤٣٢- استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ القصص: ٢٩، بأن فيها دليلاً على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمرا فالمؤمنون عند شروطهم وأحق الشروط أن يوفى به ما استحلت به الفروج.

(فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ)مِن جَانِبِ الْوَادِى مِمَّا يَلِى الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ كَمَا قَالَ(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ) فَهَذَا مِمَّا يُرْشِدُ إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ وَ الْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ وَ النَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِمَ فِى شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ فِى لُحف الْجَبَلِ مِمَّا يَلِى الْوَادِىَ فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا فَنَادَاهُ رَبُّهُ: -(مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ

(فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)

*فأخبر بألوهيته و ربوبيته و يلزم من ذلك أن يأمره بعبادته و تأله لقوله:-(فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) ٣٠

(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)كَمَا قَرَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:-

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى17 قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) [طَهَ]

وَ الْمَعْنَى: أَمَّا هَذِهِ عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا أَلْقِهَا (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

فَعَرَفَ وَ تَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِى يُخَاطِبُهُ وَ يُكَلِّمُهُ هُوَ الَّذِى يَقُولُ لِلشَّيْءِ:-كُنْ فَيَكُونُ.كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ "طَهَ"

(فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ)تضطرب_تسعى سعيا شديدا و لها سورة مُهيلة

(كَأَنَّهَا جَآنٌّ)ذَكَرُ الحيات العظيم

*فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ مَعَ عِظَمِ خَلْقِ قَوَائِمِهَا وَ اتِّسَاعِ فَمِهَا وَ اصْطِكَاكِ أَنْيَابِهَا وَ أَضْرَاسِهَا بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا فَتَنْحَدِرُ فِي فِيهَا تَتَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ. فَعِنْدَ ذَلِكَ

(وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)يَلْتَفِتُ_يرجع لاستيلاء الروع على قلبه لِأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ.

فقال اللّه له:(يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ)و هذا أبلغ ما يكون في التأمين و عدم الخوف.

فإن قوله: (أَقْبِلْ)يقتضى الأمر بإقباله و يجب عليه الامتثال و لكن قد يكون إقباله و هو لم يزل فى الأمر

المخوف فقال: (وَلَا تَخَفْ) أمر له بشيئين:-1-إقباله 2-و أن لا يكون فى قلبه خوف

*و لكن يبقى احتمال وهو أنه قد يقبل و هو غير خائف و لكن لا تحصل له الوقاية و الأمن من المكروه فقال:

(إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ)فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه فأقبل موسى عليه السلام غير خائف و لا مرعوب

بل مطمئنا واثقا بخبر ربه قد ازداد إيمانه و تم يقينه فهذه آية أراه اللّه إياها قبل ذهابه إلى فرعون ليكون على

يقين تام فيكون أجرأ له و أقوى و أصلب ٣١

ثم أراه الآية الأخرى فقال:-

(أَسْلُكْ)أدخل(يَدَكَ فِي جَيْبِكَ)فتحة قميصك المفتوحة إلى الصدر فسلكها و أخرجها كما ذكر اللّٰه تعالى.

(تَخْرُجْ بَيْضَآءَ)تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرْقِ

(مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ)بَرَصٍ(وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ)عضدك إلى جنبك(مِنَ ٱلرَّهْبِ)يزول عنك الرهب و الخوف.

(فَذَٰنِكَ)فهاتان اللتان(انقلاب العصا حية و خروج اليد بيضاء من غير سوء)

(بُرْهَـٰنَانِ)حجتان قاطعتان (مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ)وَ قَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَ الْكُبَرَاءِ وَ الْأَتْبَاعِ

(إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ)خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ الله مخالفين لدين الله و الله أعلم.

*فلا يكفيهم مجرد الإنذار و أمر الرسول إياهم بل لا بد من الآيات الباهرة إن نفعت﴿٣٢﴾

فـ (قَالَ)موسى ﷺ معتذرا من ربه و سائلا له المعونة على ما حمله و ذاكرا له الموانع التى فيه ليزيل ربه ما يحذره منها

تكذيب فرعون و عاقبة عناده 33-46

(رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا)ذلك القبطى(فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)إذا رأونى﴿٣٣﴾

(وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)(Î)

*وَ ذَلكَ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ فِي لِسَانِهِ لَثْغَةٌ بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الْجَمْرَةَ حِينَ خُيِّرَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ التَّمْرَةِ أَوِ الدُّرَّةِ فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي27 يَفْقَهُوا قَوْلِي28 وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي29 هَارُونَ أَخِي30اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي31 وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)[طَهَ]

أَيْ: يُؤْنِسُنِي فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ وَ هُوَ الْقِيَامُ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَ الرِّسَالَةِ إِلَى هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ.

٤٣٣-﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ القصص: ٣٤، فيه إشارة إلى أهمية العناية بالجانب البياني والإعلامي في باب دعوة الآخرين، مسلمين أو غيرهم، وأنه لا يكفي مجرد صدق الداعي، بل يحسن مع ذلك أن يهتم بكل وسيلة تكون سببا في إبلاغ دعوته، والتأثير بها.

(فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا)معاونا و مساعدا(يُصَدِّقُنِيٓ)فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق

*لِأَنَّ خَبَرَ اثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ خَبَرٍ وَاحِدٍ وَ لِهَذَا قَالَ: -

(إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)فأجابه اللّه إلى سؤاله فـ(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ)سنعاونك و سنقويك(بِأَخِيكَ)

*كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-(قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)[طَهَ: 36] وَ قَالَ(وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)[مَرْيَمَ: 53]

وَ لِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:-

لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنَّةً عَلَى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلَى هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّهُ شُفِّعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَ رَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ وَ لِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى:-(وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) [الْأَحْزَابِ: 69]

*ثم أزال عنه محذور القتل فقال:–(وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا)تسلطا و تمكنا من الدعوة بالحجة و الهيبة الإلهية من عدوهما لهما (فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا)بسوء(بِـَٔايَٰتِنَآ)

و ذلك بسبب آياتنا و ما دلت عليه من الحق و ما أزعجت به من باشرها و نظر إليها فهى التى بها حصل لكما السلطان و اندفع بها عنكم كيد عدوكم و صارت لكم أبلغ من الجنود أولى الْعَدَدِ و الْعُدَدِ.

(أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ)و هذا وعد لموسى فى ذلك الوقت و هو وحده فريد و قد رجع إلى بلده بعد ما كان شريدا فلم تزل الأحوال تتطور و الأمور تنتقل حتى أنجز الله له موعوده و مكنه من العباد و البلاد و صار له و لأتباعه الغلبة و الظهور.كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:-

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[الْمَائِدَةِ: 67] وَ قَالَ:-

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)[الْأَحْزَابِ: 39] أى:-نَاصِرًا وَ مُعِينًا وَ مُؤَيِّدًا

وَ لِهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا و لِمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَقَالَ:-(أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)كقوله:-

(كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)[الْمُجَادَلَةِ: 21] وَ قَالَ:-(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ51يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)[غَافِرٍ] ٣٤

بون شاسع بين استعلاء فرعون وجبروته وطغيانه، وضعف قوم موسى وذلتهم وقلة حيلتهم، وبرغم ذلك قال الله عز وجل لموسى وهارون ومن معهما:

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥]

أي: بحجتنا وهذه هي حقيقة الانتصار.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي
فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ
مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ
﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا
لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا
ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

فذهب موسى برسالة ربه(فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ)واضحات الدلالة على ما قال لهم ليس فيها قصور و لا خفاء(قَالُواْ)على وجه الظلم و العلو و العناد(مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى)

كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق و استعلى على الباطل و اضمحل الباطل

و خضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

هذا و هو الذكى غير الزكى الذى بلغ من المكر و الخداع و الكيد ما قصه اللّه علينا و قد علم:-

(مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)و لكن الشقاء غالب.

(وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ)

و قد كذبوا فى ذلك فإن اللّه أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى كما قال تعالى:-

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)﴿٣٦﴾

(وَقَالَ مُوسَىٰ)حين زعموا أن الذى جاءهم به سحر و ضلال و أن ما هم عليه هو الهدى:

(رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ)النُّصْرَةُ وَ الظَّفَرُ وَ التَّأْيِيدُ

*أى:إذا لم تفد المقابلة معكم و تبيين الآيات البينات و أبيتم إلا التمادى فى غيكم و اللجاج على كفركم فاللّه تعالى العالم بالمهتدى و غيره و من تكون له عاقبة الدار نحن أم أنتم

(إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)

فصار عاقبة الدار لموسى و أتباعه و الفلاح و الفوز و صار لأولئك الخسار و سوء العاقبة و الهلاك۝٣٧

(وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ)متجرئا على ربه و مموها على قومه السفهاء أخفاء العقول:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي)

أى: أنا وحدى إلهكم و معبودكم و لو كان ثَمَّ إله غيرى لعلمته فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون!

حيث لم يقل « ما لكم من إله غيرى » بل تورع و قال:–(مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي)

و هذا لأنه عندهم العالم الفاضل الذى مهما قال فهو الحق و مهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة التى قد تحتمل أن ثَمَّ إلها غيره أراد أن يحقق النفى الذى جعل فيه ذلك الاحتمال

فقال لـــ" هامان ":–

(فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ)ليجعل له لبنا من فخار(فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا)بناء

*وَ هُوَ الْقَصْرُ الْمُنِيفُ الرَّفِيعُ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ36 أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ)[غَافِر] وَ ذَلِكَ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ بَنَى هَذَا الصَّرحَ الَّذِى لَمْ يُرَ فِي الدُّنْيَا بِنَاءٌ أَعْلَى مِنْهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُظْهِرَ لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيبَ مُوسَى فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ دَعْوَى إِلَهٍ غَيْرِ فِرْعَوْنَ

(لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ)فِي قَوْلِهِ إِنَّ ثَمّ رَبًّا غَيْرِى لَا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ فَإِنَّهُ قَالَ:-(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) [الشُّعَرَاء: 23] وَ قَالَ:-

(لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)[الشُّعَرَاء: 29] و لكن سنحقق هذا الظن و نريكم كذب موسى.

فانظر هذه الجراءة العظيمة على اللّه التى ما بلغها آدمى كذب موسى و ادَّعى أنه إله و نفى أن يكون له علم بالإله الحق و فعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى و كل هذا ترويج

و لكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة المدبرون لشئونها كيف لعب هذا الرجل بعقولهم و استخف أحلامهم و هذا لفسقهم الذى صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم ثم تبع ذلك فساد عقولهم

فنسألك اللهم الثبات على الإيمان و أن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا و تهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب۝٣٨

(وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ)

استكبروا على عباد اللّه و ساموهم سوء العذاب و استكبروا على رسل اللّه و ما جاءوهم به من الآيات فكذبوها

و زعموا أن ما هم عليه أعلى منها و أفضل.

(وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ)

فلذلك تجرؤوا و إلا فلو علموا أو ظنوا أنهم يرجعون إلى اللّه لما كان منهم ما كان.

*طَغَوْا وَ تَجَبَّرُوا وَ أَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا مَعَادَ وَ لَا قِيَامَةَ(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ 13إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)[الفجر] ﴿٣٩﴾

و لهذا قال ها هنا: –(فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ)عندما استمر عنادهم و بغيهم

(فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ)أَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ

(فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ)

كانت شر العواقب و أخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة المتصلة بالعقوبة الأخروية﴿٤٠﴾

(وَجَعَلۡنَٰهُمۡ)أي:-فرعون و قومه(أَئِمَّةٗ)قادة (يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ)النار يَقتدى بهم أهل الكفر و الفسق و يُمْشى خلفهم إلى دار الخزى و الشقاء.

*لِمَنْ سَلَكَ وَرَاءَهُمْ وَ أَخَذَ بِطَرِيقَتِهِمْ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَ تَعْطِيلِ الصَّانِعِ

(وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ)و ذلك بسبب كفرهم و تكذيبهم رسول ربهم و إصرارهم على ذلك.

من عذاب اللّه فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم و ليس لهم من دون اللّه من ولى و لا نصير.

*فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:(أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ)[مُحَمَّدٍ: 13] ﴿٤١﴾

(وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا)و أتبعناهم زيادة فى عقوبتهم و خزيهم في الدنيا

(لَعۡنَةٗۖ)يلعنون و لهم عند الخلق الثناء القبيح و المقت و الذم و هذا أمر مشاهد فهم أئمة الملعونين فى الدنيا و مقدمتهم

(وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ)المبعدين المستقذرة أفعالهم.الذين اجتمع عليهم مقت اللّه و مقت خلقه و مقت أنفسهم.قَالَ قَتَادَةُ: وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُالْمَرْفُودُ)[هود: 99] ﴿٤٢﴾

(وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ)و هو التوراة

(مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ)كقوم نوح وعاد و ثمود و قوم لوط و أصحاب «مدين»

*الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام فرعون و جنوده.

و هذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام و شرع جهاد الكفار بالسيف.

*أَنَّهُ بَعْدَ إِنْزَالِ التَّوْرَاةِ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ:(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ 9 فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)[الْحَاقَّةِ]

وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:-عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرى ﷺقَالَ:-
مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ لَا مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
غَيْرَ الْقَرْيَةِ الَّتِي مُسِخُوا قِرَدَةً أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى
كتاب اللّه الذى أنزله على موسى فيه

(بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ)أى:–أمور يبصرون بها ما ينفعهم و ما يضرهم فتقوم الحجة على العاصى
و ينتفع بها المؤمن فتكون رحمة فى حقه و هداية له إلى الصراط المستقيم و لهذا قال:–

(وَهُدًى)إلى الحق(وَرَحْمَةً)ارشادا للأعمال الصالحة(لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)بِهِ و يهتدون بسببه﴿٤٣﴾
*و لما قص اللّه على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية نبه العباد على أن هذا خبر إلهى محض ليس
للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحى و لهذا قال:–

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾
وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا
وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ
أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ)الطور(ٱلْغَرْبِيِّ)

(إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ)وقت قضائنا لموسى الأمر وَ قَالَ قَتَادَةُ:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)مُوسَى
وَ هَذَا -وَ اللَّهُ أَعْلَمُ -أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ)
ثُمَّ أَخْبَرَ هَاهُنَا بِصِيغَةٍ أُخْرَى أَخَصَّ مِنْ ذَلِكَ وَ هُوَ النِّدَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى)[الشُّعَرَاء: 10]وَ قَالَ:-
(إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) [النَّازِعَات: 16] وَ قَالَ:-(وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)[مَرْيَم: 52]

(وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)على ذلك حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق﴿٤٤﴾

(وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ)
فاندرس العلم و نسيت آياته فبعثناك فى وقت اشتدت الحاجة إليك و إلى ما علمناك و أوحينا إليك.

(وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا)مقيما

(فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا)تعلمهم و تتعلم منهم حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى فى مدين

(وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)
أى:و لكن ذلك الخبر الذى جئت به عن موسى أثر من آثار إرسالنا إياك وَ وَحْيٌ لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا﴿٤٥﴾

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)موسى

وَ أمرناه أن يأتى القوم الظالمين و يبلغهم رسالتنا و يريهم من آياتنا و عجائبنا ما قصصنا عليك.

و المقصود:–أن الماجريات التى جرت لموسى ﷺفى هذه الأماكن فقصصتها كما هى من غير زيادة و لا نقص لا يخلو من أحد أمرين:–

1–إما أن تكون حضرتها و شاهدتها

2–أو ذهبت إلى محالِّها فتعلمتها من أهلها

فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول اللّه إذ الأمور التى يخبر بها عن شهادة و دراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء و لكن هذا قد عُلِمَ و تُيُقِّن أنه ما كان و ما صار فأولياؤك و أعداؤك يعلمون عدم ذلك.

فتعين الأمر الثانى و هو:–

أن هذا جاءك من قِبَلِ اللّه و وحيه و إرساله فثبت بالدليل القطعى صحة رسالتك و رحمة اللّه بك للعباد

و لهذا قال:–(وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ)

*مَا كُنْتَ مُشَاهِدًا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَ أَخْبَرَكَ بِهِ رَحْمَةً مِنْهُ لَكَ وَ بِالْعِبَادِ بِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ

(لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ)

أي: العرب و قريش فإن الرسالة عندهم لا تعرف وقت إرسال الرسول و قبله بأزمان متطاولة

(لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ)تفصيل الخير فيفعلونه و الشر فيتركونه

فإذا كنت بهذه المنزلة كان الواجب عليهم المبادرة إلى الإيمان بك و شكر هذه النعمة التى لا يقادر قدرها و لا يدرك شكرها.و إنذاره للعرب لا ينفى أن يكون مرسلا لغيرهم فإنه عربى

و القرآن الذى أنزل عليه عربى و أول من باشر بدعوته العرب فكانت رسالته إليهم أصلا و لغيرهم تبعا كما قال:

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿٤٦﴾

تكذيب مشركى مكة للرسول و القرآن و الرد على شبهاتهم 47-51

(وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ)من الكفر و المعاصى

(فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)

أى: فأرسلناك يا محمد لدفع حجتهم و قطع مقالتهم و لِتَقْطَعَ عُذْرَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ فَيَحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَ لَا نَذِيرٌ كَمَا قَالَ اللهُ بَعْدَ ذِكْرِهِ إِنْزَالَ كِتَابِهِ الْمُبَارَكِ وَ هُوَ الْقُرْآنُ:-

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ 156 أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)[الأنعام] وَ قَالَ:-(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[النِّسَاءِ: 165]وَ قَالَ(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[الْمَائِدَةِ: 19] ﴿٤٧﴾

(فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ)الذى لا شك فيه

(مِنۡ عِندِنَا)و هو القرآن الذى أوحيناه إليك (قَالُواْ)مكذبين له و معترضين بما ليس يعترض به:

(لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ)

*أى: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة.أى: فأما ما دام ينزل متفرقا فإنه ليس من عند اللّه.

و أى دليل فى هذا؟ و أى شبهة أنه ليس من عند اللّه حين نزل مفرقا؟

بل من كمال هذا القرآن و اعتناء اللّه بمن أنزل عليه أن نزل متفرقا ليثبت اللّه به فؤاد رسوله و يحصل زيادة الإيمان للمؤمنين(وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)

و أيضا فإن قياسهم على كتاب موسى قياس قد نقضوه فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به و لم يؤمنوا؟

*يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَوْ عَذَّبَهُمْ قَبْلَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ:
أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍﷺقالوا على وَجْه:-
التَّعَنُّتِ وَ الْعِنَادِ وَ الْكُفْرِ وَ الْجَهْلِ وَ الْإِلْحَادِ:-(لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ)
يَعْنُونَ -وَ اللَّهُ أَعْلَمُ -:-مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ مِثْلَ:-
الْعَصَا وَ الْيَدِ وَ الطُّوفَانِ وَ الْجَرَادِ وَ الْقُمَّلِ وَ الضَّفَادِعِ وَ الدَّم وَ تَنَقُّصِ الزُّرُوعِ وَ الثِّمَارِ مِمَّا يَضِيقُ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ وَ كَفَلْقِ الْبَحْرِ وَ تَظْلِيلِ الْغَمَامِ وَ إِنْزَالِ المنِّ وَ السَّلْوَى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَ الْحُجَجِ الْقَاهِرَةِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى يَدَيْ مُوسَىعليه السلامحُجَّةً وَ بَرَاهِينَ لَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ وَ بَنِى إِسْرَائِيلَ
وَ مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ كَمَا قَالُوا لَهُمَا:-
(أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)[يُونُسَ: 78]

وَ قَالَ تَعَالَى:(فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)[الْمُؤْمِنُونَ: 48] ﴿٤٨﴾ و لهذا قال:–

(أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ)القرآن و التوراة

(تَظَٰهَرَا)تعاونا فى سحرهما و إضلال الناس

*لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ:(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ)وَ كَثِيرًا مَا يُقْرِنُ اللَّهُ بَيْنَ التَّوْرَاةِ وَ الْقُرْآنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ)إِلَى أَنْ قَالَ:(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ)[الأنعام: 91 92] وَ قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ:(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ)إِلَى أَنْ قَالَ:(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[الْأَنْعَامِ: 155] وَ قَالَتِ الْجِنُّ:(إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)[الْأَحْقَافِ: 30]

*اعراب (سِحۡرَانِ):-خبر لمبتدا محذوف تقديره(هما)أى التوراة و القرآن و علامه رفعه الالف لانه مثنى

(وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ)

فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان و ينقضونه بما لا ينقض و يقولون الأقوال المتناقضة المختلفة و هذا شأن كل كافر.

و لهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين و الرسولين و لكن هل كفرهم بهما كان طلبا للحق و اتباعا لأمر عندهم خير منهما أم مجرد هوى؟﴿٤٩﴾قال تعالى ملزما لهم بذلك:–

(قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ)أي: من التوراة و القرآن

(أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

و لا سبيل لهم و لا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما فإنه ما طرق العالم منذ خلقه اللّه مثل هذين الكتابين علما و هدى و بيانا و رحمة للخلق و هذا من كمال الإنصاف من الداعى أن قال:-

أنا مقصودي الحق و الهدى و الرشد و قد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك الموافق لكتاب موسى فيجب علينا جميعا الإذعان لهما و اتباعهما من حيث كونهما هدى و حقا فإن جئتمونى بكتاب من عند اللّه هو أهدى منهما اتبعته و إلا فلا أترك هدى و حقا قد علمته لغير هدى و حق

(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ)فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما

(فَٱعْلَمْ)فاعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه و لا إلى هدى فهم (أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ)

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ)

فهذا من أضل الناس حيث عرض عليه الهدى و الصراط المستقيم الموصل إلى اللّه و إلى دار كرامته فلم يلتفت إليه و لم يقبل عليه و دعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك و الشقاء فاتبعه و ترك الهدى فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟

و لكن ظلمه و عدوانه و عدم محبته للحق هو الذى أوجب له أن:-يبقى على ضلاله و لا يهديه اللّه

فلهذا قال:-(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

أى:الذين صار الظلم لهم وصفا و العناد لهم نعتا جاءهم الهدى فرفضوه و عرض لهم الهوى فتبعوه سدوا على أنفسهم أبواب الهداية و طرقها و فتحوا عليهم أبواب الغواية و سبلها فهم فى غيهم و ظلمهم يعمهون و فى شقائهم و هلاكهم يترددون.

و فى قوله:(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)دليل على أن كل من لم يستجب للرسول و ذهب إلى قول مخالف لقول الرسول فإنه لم يذهب إلى هدى و إنما ذهب إلى هوى﴿٥٠﴾

٣٦١- والهوى -نعوذ بالله منه- هو أول فتنة طَرَقَت العالم، وباتباع الهوى ضلّ إبليس
وبه ضلَّ كثيرٌ من الأمم عن اتِّباع رسلهم وأنبيائهم، كما في قصص القرآن العظيم
ولهذا حكم الله -وهو أعدل الحاكمين- أنَّه لا أحد أضل ممن اتَّبع هواه.
فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠]

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ
بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ
وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ
أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ
وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ
وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا)تابعنا و واصلنا و أنزلناه شيئا فشيئا(لَهُمُ ٱلْقَوْلَ)لقريش رحمة بهم و لطفا

(القرىن نزل متواصلا متتابعا و ليس دفعة واحدة من الوصل و قيل أى :–مفصلا و ليس المراد بهذه الىة أنه أوصله اليهم من الايصال)

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)حين تتكرر عليهم آياته و تنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها.

فصار نزوله متفرقا رحمة بهم فلم اعترضوا على ما هو من مصالحهم؟

*الصحيح المسند من أسباب النزول:قال ابن جرير عن يحيى بن جعدةﷺقال نزلت هذه الآية فى عشرة أنا أحدهم (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

*فصل فى ذكر بعض الفوائد و العبر فى هذه القصة العجيبة :–

1–أن آيات اللّه تعالى و عبره و أيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها و يستنير المؤمنون فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته و إن اللّه تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم و أما غيرهم فلا يعبأ اللّه بهم و ليس لهم منها نور و هدى.

2–أن اللّه تعالى إذا أراد أمرا هيأ أسبابه و أتى بها شيئا فشيئا بالتدريج لا دفعة واحدة.

3–أن الأمة المستضعفة و لو بلغت في الضعف ما بلغت لا ينبغى لها أن يستولى عليها الكسل عن طلب حقها و لا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور خصوصا إذا كانوا مظلومين كما استنقذ اللّه أمة بنى إسرائيل الأمة الضعيفة من أسر فرعون و ملئه و مكنهم فى الأرض و ملكهم بلادهم.

4–أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها و لا تتكلم به لا يقوم لها أمر دينها و لا دنياها و لا يكون لها إمامة فيه.
5–لطف اللّه بأم موسى و تهوينه عليها المصيبة بالبشارة بأن اللّه سيرد إليها ابنها و يجعله من المرسلين.
6–أن اللّه يقدر على عبده بعض المشاق لينيله سرورا أعظم من ذلك أو يدفع عنه شرا أكثر منه
كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد و الهم البليغ الذى هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تطمئن به نفسها و تقر به عينها و تزداد به غبطة و سرورا.
7–أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان و لا يزيله كما جرى لأم موسى و لموسى من تلك المخاوف
8–أن الإيمان يزيد و ينقص و أن من أعظم ما يزيد به الإيمان و يتم به اليقين الصبر عند المزعجات
و التثبيت من اللّه عند المقلقات كما قال تعالى(لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)أى:–
ليزداد إيمانها بذلك و يطمئن قلبها.
9–أن من أعظم نعم اللّه على عبده و أعظم معونة للعبد على أموره تثبيت اللّه إياه و ربط جأشه و قلبه عند المخاوف و عند الأمور المذهلة فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب و الفعل الصواب بخلاف من استمر قلقه و روعه و انزعاجه فإنه يضيع فكره و يذهل عقله فلا ينتفع بنفسه فى تلك الحال.
10–أن العبد –و لو عرف أن القضاء و القدر و وعد اللّه نافذ لا بد منه– فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها و لا يكون ذلك منافيا لإيمانه بخبر اللّه فإن اللّه قد وعد أم موسى أن يرده عليها
و مع ذلك اجتهدت على رده و أرسلت أخته لتقصه و تطلبه.
11–جواز خروج المرأة فى حوائجها و تكليمها للرجال من غير محذور كما جرى لأخت موسى و ابنتي صاحب مدين.
12–جواز أخذ الأجرة على الكفالة و الرضاع و الدلالة على من يفعل ذلك.
13–أن اللّه من رحمته بعبده الضعيف الذى يريد إكرامه أن يريه من آياته و يشهده من بيناته ما يزيد به إيمانه كما رد اللّه موسى على أمه لتعلم أن وعد اللّه حق.
14–أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز فإن موسى عليه السلام عدَّ قتله القبطي الكافر ذنبا و استغفر اللّه منه.
15–أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين الذين يفسدون فى الأرض.
16–أن من قتل النفوس بغير حق و زعم أنه يريد الإصلاح فى الأرض و تهييب أهل المعاصى فإنه كاذب فى ذلك و هو مفسد كما حكى اللّه قول القبطى(إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)
على وجه التقرير له لا الإنكار.
17–أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شر يقع فيه لا يكون ذلك نميمة – بل قد

يكون واجبا- كما أخبر ذلك الرجل لموسى ناصحا له و محذرا.

18-أنه إذا خاف القتل و التلف في الإقامة فإنه لا يلقى بيده إلى التهلكة و لا يستسلم لذلك بل يذهب عنه كما فعل موسى.

19-أنه عند تزاحم المفسدتين إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما أنه يرتكب الأخف منهما و الأسلم كما أن موسى لما دار الأمر بين بقائه فى مصر و لكنه يقتل أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها و ليس معه دليل يد له غير ربه و لكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى فتبعها موسى.

20-أن الناظر فى العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه إذا لم يترجح عنده أحد القولين فإنه يستهدى ربه و يسأله أن يهديه الصواب من القولين بعد أن يقصد بقلبه الحق و يبحث عنه

فإن اللّه لا يخيب مَنْ هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال:-(عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

21-أن الرحمة بالخلق و الإحسان على من يعرف و من لا يعرف من أخلاق الأنبياء و أن من الإحسان سقى الماشية الماء و إعانة العاجز.

22-استحباب الدعاء بتبيين الحال و شرحها و لو كان اللّه عالما لها لأنه تعالى يحب تضرع عبده و إظهار ذله و مسكنته كما قال موسى:(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

23-أن الحياء – خصوصا من الكرام- من الأخلاق الممدوحة.

24-المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

25-أن العبد إذا فعل العمل للّه تعالى ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول أنه لا يلام على ذلك كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له و لم يستشرف بقلبه على عوض.

26-مشروعية الإجارة و أنها تجوز على رعاية الغنم و نحوها مما لا يقدر العمل و إنما مرده العرف.

27-أنه تجوز الإجارة بالمنفعة و لو كانت المنفعة بضعا.

28-أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يلام عليه.

29-أن خير أجير و عامل يعمل للإنسان أن يكون قويا أمينا.

30-أن من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّن خلقه لأجيره و خادمه و لا يشق عليه بالعمل لقوله:-

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

31-جواز عقد الإجارة و غيرها من العقود من دون إشهاد لقوله:-(وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

32-ما أجرى اللّه على يد موسى من الآيات البينات و المعجزات الظاهرة من الحية و انقلاب يده بيضاء من غير سوء و من عصمة اللّه لموسى و هارون من فرعون و من الغرق.

33-أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماما فى الشر و ذلك بحسب معارضته لآيات اللّه و بيناته

كما أن من أعظم نعمة أنعم اللّه بها على عبده أن يجعله إماما فى الخير هاديا مهديا.

34–ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بذلك تفصيلا مطابقا و تأصيلا موافقا قصه قصا صدق به المرسلين و أيد به الحق المبين من غير حضور شيء من تلك الوقائع و لا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع و لا تلاوة درس فيها شيئا من هذه الأمور و لا مجالسة أحد من أهل العلم إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم و وحي أنزله عليه الكريم المنان لينذر به قوما جاهلين و عن النذر و الرسل غافلين.

فصلوات اللّه وسلامه على من مجرد خبره ينبئ أنه رسول اللّه و مجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة أنه من عند اللّه

كيف و قد تطابق على صحة ما جاء به و صدقه خبر الأولين و الآخرين و الشرع الذى جاء به من رب العالمين و ما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب و لا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة و النصر المبين لدينه و أمته حتى بلغ دينه مبلغ الليل و النهار و فتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان و قلوبهم بالعلم و الإيمان.

و لم تزل الأمم المعاندة و الملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة و تكيد له المكايد و تمكر لإطفائه و إخفائه و إخماده من الأرض و هو قد بهرها و علاها لا يزداد إلا نموا و لا آياته وبراهينه إلا ظهورا و كل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة لِلْعَالَمِينَ و هداية لِلْعَالَمِينَ و نور و بصيرة للمتوسمين.

و الحمد للّه وحده.

*يذكر تعالى عظمة القرآن و صدقه و حقه و أن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه و يؤمنون به و يقرون بأنه الحق (٥١)

٢٩٣) – [١] قال الكاتب والشاعر النصراني أمين نخلة:

«كلما قرأت القرآن قلت لنفسي: ويحك انجي فإنك على النصرانية»! انتهى

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ينظر: كتاب (ميراث الصمت والملكوت)، :(١٤٢)

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ)و هم أهل التوراة و الإنجيل الذين لم يغيروا و لم يبدلوا

(هُم بِهِۦ)أى: بهذا القرآن و من جاء به

(يُؤْمِنُونَ)كَمَا قَالَ تَعَالَى:-(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)[الْبَقَرَة: 121]

وَ قَالَ(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ)[آل عِمْرَانَ: 199]

وَ قَالَ(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا 107 وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا)[الإِسْرَاء]وَ قَال(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ 82 وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)[الْمَائِدَة] (٥٢)

(وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ)استمعوا له و أذعنوا

و (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ)لموافقته ما جاءت به الرسل و مطابقته لما ذكر فى الكتب و اشتماله على الأخبار الصادقة و الأوامر و النواهى الموافقة لغاية الحكمة.

و هؤلاء الذين تفيد شهادتهم و ينفع قولهم لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم و بصيرة لأنهم أهل الصنف و أهل الكتب و غيرهم لا يدل ردهم و معارضتهم للحق على شبهة فضلا عن الحجة لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق. كقوله(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا)

(إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ)أى:—مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ (مُسۡلِمِينَ)مُوَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ لِلَّهِ مُسْتَجِيبِينَ لَهُ.

فلذلك ثبتنا على ما مَنَّ اللّه به علينا من الإيمان فصدقنا بهذا القرآن آمنا بالكتاب الأول و الكتاب الآخر و غيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول﴿٥٣﴾

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين آمنوا بالكتابين (يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ)أجرا على الإيمان الأول و أجرا على الإيمان الثانى

(بِمَا صَبَرُواْ)على الإيمان و ثبتوا على العمل فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة و لا تناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة

*البخارى97 - عن أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: -" ثَلاَثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ:-

1-رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ(التوراة أو الإنجيل ذكرا كان أم أنثى) آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

2-وَ العَبْدُ المَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَ حَقَّ مَوَالِيهِ(جمع مولى وهو السيد المالك للعبد أو المعتق له)

3-وَ رَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ(مملوكة)فَأَدَّبَهَا(رباها ونشأها على التخلق بالأخلاق الحميدة)فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَ عَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ "ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ:-أَعْطَيْنَاكَهَا(أى هذه الفتوى والخطاب لرجل من أهل خراسان سأله عمن يعتق أمته ثم يتزوجها)بِغَيْرِ شَيْءٍ قَدْ كَانَ يُرْكَبُ فِيمَا دُونَهَا إِلَى المَدِينَةِ

*و من خصالهم الفاضلة التى من آثار إيمانهم الصحيح أنهم (وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ)

أى:دأبهم و طريقتهم الإحسان لكل أحد حتى للمسيء إليهم بالقول و الفعل يقابلونه بالقول الحميد و الفعل الجميل لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم و أنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

(وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ)

وَ مِنَ الَّذِى رَزَقَهُمْ مِنَ الْحَلَالِ يُنْفِقُونَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ فِي النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِأَهْلِهِمْ وَ أَقَارِبِهِمْ وَ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَ الْمُسْتَحَبَّةِ مِنَ التَّطَوُّعَاتِ وَ صَدَقَاتِ النَّفْلِ و القربات﴿٥٤﴾

(وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ)من جاهل خاطبهم به

(أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ)لَا يُخَالِطُونَ أَهْلَهُ وَ لَا يُعَاشِرُونَهُمْ بَلْ كَمَا قَالَ(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)[الفُرْقَان: 72]

(وَقَالُواْ)مقالة عباد الرحمن أولى الألباب:—

﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾إِذَا سَفه عَلَيْهِمْ سَفيه وَ كَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَليقُ بِهِمُ الجوابُ عَنْهُ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ لَمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ وَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ. وَ لِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ قَالُوا: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)أَيْ: لَا نُرِيدُ طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ وَ لَا نُحبّها.

*أى: كُلٌّ سَيُجازَى بعمله الذى عمله وحده ليس عليه من وزر غيره شيء

و لزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون من اللغو و الباطل و الكلام الذى لا فائدة فيه.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾أى لا تسمعون منا إلا الخير و لا نخاطبكم بمقتضى جهلكم

فإنكم و إن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم فإننا ننزه أنفسنا عنه و نصونها عن الخوض فيه

﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾من كل وجه﴿٥٥﴾

زعم المشركين و الرد عليهم 56-61

﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾

يخبر تعالى أنك يا محمد – و غيرك من باب أولى– لا تقدر على هداية أحد و لو كان من أحب الناس إليك

فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية للتوفيق و خلق الإيمان فى القلب

و إنما ذلك بيد اللّه سبحانه تعالى يهدي من يشاء و هو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

*و أما إثبات الهداية للرسول فى قوله تعالى:–(وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)فتلك هداية البيان و الإرشاد

فالرسول يبين الصراط المستقيم و يرغب فيه و يبذل جهده فى سلوك الخلق له

و أما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان و يوفقهم بالفعل فحاشا و كلا.

و لهذا لو كان قادرا عليها لهدى من وصل إليه إحسانه و نصره ومنعه من قومه عمه أبا طالب

و لكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين و النصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمه و لكن الهداية بيد اللّه تعالى.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-البخارى1360-عن سَعِيدِ بْنُ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ:
أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِأَبِي طَالِبٍ:-"يَا عَمِّ قُلْ:-
لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا (أحاجج لك بها وأدافع عنك)عِنْدَ اللَّهِ"
فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ:-يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ(أتعرض عن طريقة) عَبْدِ المُطَّلِبِ؟
فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَ يَعُودَانِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ:-
هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَ أَبَى أَنْ يَقُولَ:-لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
«أَمَا و اللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ(أنه عن الاستغفار لك)»فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ:-
(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم

أي ثبت لهم أنهم من أهل النار بموتهم على الكفر والشرك) [التوبة: 113] الآيَةَ﴿٥٦﴾

(وَقَالُوٓاْ)يخبر تعالى أن المكذبين من قريش و أهل مكة يقولون للرسول ﷺ: –

(إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ)بالقتل و الأسر و نهب الأموال فإن الناس قد عادوك و خالفوك فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم و لم يكن لنا بهم طاقة.

و هذا الكلام منهم يدل على سوء الظن باللّه تعالى و أنه لا ينصر دينه و لا يعلى كلمته بل يمكن الناس من أهل دينه فيسومونهم سوء العذاب و ظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال اللّه مبينا لهم حالة هم بها دون الناس و أن اللّه اختصهم بها فقال:–

(أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ)أى:–نجعلهم متمكنين ممكنين

(حَرَمًا ءَامِنٗا)فى حرم يكثره المنتابون و يقصده الزائرون قد احترمه البعيد و القريب فلا يهاج أهله و لا ينتقصون بقليل و لا كثير و الحال أن كل ما حولهم من الأماكن قد حف بها الخوف من كل جانب و أهلها غير آمنين و لا مطمئنين فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام الذى ليس فيه غيرهم

(يُجۡبَىٰٓ)يُجلب(إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا)

و على الرزق الكثير الذى يجىء إليهم من كل مكان من الثمرات و الأطعمة و البضائع ما به يرتزقون و يتوسعون و لْيَتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم ليتم لهم الأمن و الرغد.

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)

و إياهم و تكذيبه و البطر بنعمة الله فيبدلوا من بعد أمنهم خوفا و بعد عزهم ذلا و بعد غناهم فقرا﴿٥٧﴾

و لهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم فقال:–

(وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ)فخرت بها و ألهتها و اشتغلت بها عن الإيمان بالرسل فأهلكهم اللّه و أزال عنهم النعمة و أحل بهم النقمة

(فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ)لتوالى الهلاك و التلف عليهم و إيحاشها من بعدهم.

(وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ)

للعباد نميتهم ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم بأعمالهم

و من حكمته و رحمته:–أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم﴿٥٨﴾

و لهذا قال:–(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ)أى: بكفرهم و ظلمهم(حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا)

أى:فى القرية و المدينة التى إليها يرجعون و نحوها يترددون و كل ما حولها ينتجعها و لا تخفى عليه أخبارها.

(رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ)الدالة على صحة ما جاء به و صدق ما دعاهم إليه فيبلغ قوله قاصيهم و دانيهم

بخلاف بعث الرسل فى القرى البعيدة و الأطراف النائية:– فإن ذلك مظنة الخفاء و الجفاء
و المدن الأمهات:–مظنة الظهور و الانتشار و فى الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.
*فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ وَ هُوَ مُحَمَّدٌﷺالْمَبْعُوثَ مِنْ أُمِّ الْقُرَى رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الْقُرَى مِنْ عَرَبٍ وَ أَعْجَامٍ كَمَا قَالَ(لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)[الشُّورَى: 7]وَ قَالَ(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِإِلَيْكُمْ جَمِيعًا)[الْأَعْرَافِ: 158]
وَ قَالَ:-(لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)[الْأَنْعَامِ: 19]وَ قَالَ:(وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ)[هُودٍ: 17]وَ تَمَامُ الدَّلِيلِ قَوْلُهُ
(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْمُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)[الْإِسْرَاءِ: 58]
فَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُهْلِكُ كُلَّ قَرْيَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ قَدْ قَالَ:(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا)[الْإِسْرَاءِ: 15]
فَجَعَلَ تَعَالَى بِعْثَةَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْقُرَى لِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى أُمِّهَا وَ أَصْلِهَا الَّتِى تَرْجِعُ إِلَيْهَا.
وَ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ:-"بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَ الْأَسْوَدِ".
وَ لِهَذَا خَتَمَ بِهِ الرِّسَالَةَ وَ النُّبُوَّةَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَ لَا رَسُولَ بَلْ شَرْعُهُ بَاقٍ بَقَاءَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.
وَ قِيلَ:-الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا)أَيْ: أَصْلِهَا وَ عَظِيمَتِهَا كَأُمَّهَاتِ الرَّسَاتِيقِ وَ الْأَقَالِيمِ

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ)بالكفر و المعاصى مستحقون للعقوبة.
و الحاصل: أن اللّه لا يعذب أحدا إلا بظلمه و إقامة الحجة عليه﴿٥٩﴾

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ
مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

(وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا و عدم الاغترار بها و على الرغبة في الأخرى و جعلها مقصود العبد و مطلوبه و يخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق من الذهب و الفضة و الحيوانات و الأمتعة و النساء و البنين و المآكل و المشارب و اللذات كلها متاع الحياة الدنيا

(وَزِينَتُهَا ۚ)يتمتع به وقتا قصيرا متاعا قاصرا محشوا بالمنغصات ممزوجا بالغصص .

و يزين به زمانا يسيرا للفخر و الرياء ثم يزول ذلك سريعا و ينقضي جميعا و لم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة و الندم و الخيبة و الحرمان .

(وَمَا عِندَ ٱللَّهِ)من النعيم المقيم و العيش السليم

(خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ)أفضل في وصفه و كميته و هو دائم أبدا و مستمر سرمدا .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ)أى: أفلا يكون لكم عقول بها تزنون أي الأمور أولى بالإيثار و أى الدارين أحق للعمل لها فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا و أنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله

*كَمَا قَالَ:{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النَّحْلِ: 96] وَ قَالَ: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} [آلِ عِمْرَانَ: 198]

وَ قَالَ: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ} [الرَّعْدِ: 26]وَ قَالَ: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الْأَعْلَى: 16 17]

*مسلم(2858) عن قَيْس قَالَ: سَمِعْتُ مُسْتَوْرِدًا أَخَا بَنِى فِهْرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«وَ اللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ-وَ أَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ-فِي الْيَمِّ(البحر)

فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»ضبطوا يرجع بالتاء وبالياء والأول أشهر ومن رواه بالياء أعاد الضمير إلى أحدكم وبالتاء أعاده على الإصبع وهو الأظهر ومعناه لا يعلق بها كثير شيء من الماء ومعنى الحديث ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر(٦٠)

*و لهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا و مؤثر الآخرة فقال:–

(أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ)

أي: هل يستوى مؤمن ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن الذي هو الجنة و ما فيها من النعيم العظيم فهو لاقيه من غير شك و لا ارتياب لأنه وعد من كريم صادق الوعد لا يخلف الميعاد لعبد قام بمرضاته و جانب سخطه

(كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)

فهو يأخذ فيها و يعطى و يأكل و يشرب و يتمتع كما تتمتع البهائم قد اشتغل بدنياه عن آخرته و لم يرفع بهدى اللّه رأسا و لم ينقد للمرسلين فهو لا يزال كذلك لا يتزود من دنياه إلا الخسار و الهلاك .

(ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ)لحساب و قد علم أنه لم يقدم خيرا لنفسه و إنما قدم جميع ما يضره و انتقل إلى دار الجزاء بالأعمال فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ و ما تحسبون ما يصنع به؟فليختر العاقل لنفسه ما هو أولى بالاختيار و أحق الأمرين بالإيثار(٦١)

*يخبر اللّه تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامةو أنه يسألهم عن أصول الأشياء و عن عبادة اللّه و إجابة رسله فقال:–

من مواقف المشركين و احوالهم يوم القيامة و فلاح المؤمنين 62-67

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ)

ينادى من أشركوا به شركاء يعبدونهم و يرجون نفعهم و دفع الضرر عنهم فيناديهم ليبين لهم عجزها و ضلالهم

(فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ)و ليس للّه شريك و لكن ذلك بحسب زعمهم و افترائهم و لهذا قال:–

(ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)فأين هم بذواتهم و أين نفعهم و أين دفعهم؟

و من المعلوم أنه يتبين لهم فى تلك الحال أن الذى عبدوه و رجوه باطل مضمحل فى ذاته و ما رجوا منه فيقرون على أنفسهم بالضلالة و الغواية(٦٢)

٢٩٤) – [٢] شجرة الإخلاص أصلها ثابت، لا يضرها زعازع:

﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

وأما شجرة الرياء فإنها تجتث عند نسمة: «من كان يعبد شيئاً فليتبعه»

و لهذا (قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ)

الرؤساء و القادة و الشَّيَاطِينِ و المَرَدَة المارقين فى الكفر و الشر مقرين بغوايتهم و إغوائهم

(رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ)التابعون(ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ)أى:كلنا قد اشترك فى الغواية و حق عليه كلمة العذاب .

(تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ)من عبادتهم أى: نحن برآء منهم و من عملهم

(مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ)و إنما كانوا يعبدون الشياطين﴿٦٣﴾(وَقِيلَ)لهم

(ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ)

على ما أَمَّلْتُم فيهم من النفع فأمروا بدعائهم فى ذلك الوقت الحرج الذى يضطر فيه العابد إلى من عبده .

(فَدَعَوۡهُمۡ)لينفعوهم أو يدفعوا عنهم من عذاب اللّه من شيء

(فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ)فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة

(وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ)الذى سيحل بهم عيانا بأبصارهم بعد ما كانوا مكذبين به منكرين له .

(لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ)

أى:لما حصل عليهم ما حصل و لهدوا إلى صراط الجنة كما اهتدوا فى الدنيا و لكن لم يهتدوا فلم يهتدوا﴿٦٤﴾

(وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)هل صدقتموهم و اتبعتموهم أم كذبتموهم و خالفتموهم؟﴿٦٥﴾

(فَعَمِيَتۡ)فخفيت(عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ)الحجج(يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ)فلم يَدْروا ما يحتجون به
فهم لا يسأل بعضهم بعضًا عما يحتجون به سؤال انتفاع.

*أى: لم يحيروا عن هذا السؤال جوابا و لم يهتدوا إلى الصواب .

و من المعلوم أنه لا ينجى فى هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أننا أجبناهم بالإيمان و الانقياد و لكن لما علموا تكذيبهم لهم و عنادهم لأمرهم لم ينطقوا بشيء و لا يمكن أن يتساءلوا و يتراجعوا بينهم فى ماذا يجيبون به و لو كان كذبا﴿٦٦﴾

(فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا)

لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم و عن رسلهم ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب اللّه تعالى و أنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك و المعاصيو آمن باللّه فعبده و آمن برسله فصدقهم و عمل صالحا متبعا فيه للرسل

(فَعَسَىٰٓ) وَ"عَسَى" مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ فَإِنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِفَضْلِ اللَّهِ و مَنّه لَا مَحَالَةَ.

(أَن يَكُونَ)من جمع هذه الخصال أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ)الناجحين بالمطلوب الناجين من المرهوب فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور﴿٦٧﴾

(وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ)أن يخلقه(وَيَخۡتَارُۗ)يصطفى لولايته مَن يشاء من خلقه

(مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ)

بعض مظاهر قدرة الله و رحمته 68-75

و ليس لأحد من الأمر و الاختيار شيء و إنما ذلك لله وحده سبحانه تعالى و تنزَّه عن شركهم.

*هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات و نفوذ مشيئته بجميع البريات و انفراده باختيار من يختاره و يختصه من الأشخاص و الأوامر و الأزمان و الأماكن و أن أحدا ليس له من الأمر و الاختيار شيء

رضيتُ بما اختار

إذا ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت وتكالبت الهموم، وبدأ الشيطان يُعقّد أمامي الأمور، ويدّعي ألاَّ وجود للحلول، أتذكر قول ربنا جلَّ شأنه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ ﴾ (٢)، فتنقشع عني غيوم الهم، وتشرق في سمائي شمس التفاؤل وإحسان الظن، فإنَّ الخيرَ كل الخير في اختيار الحكيم وتدبير العليم، ولو عُرض ليَ الغيبُ ما اخترتُ إلا اختيار ربي. القصص: ٦٨

(سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ)

و أنه تعالى منزه عن كل ما يشركون به من الشريك و الظهير و العوين و الولد و الصاحبة و نحو ذلك مما أشرك به المشركون﴿٦٨﴾

(وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ)و أنه العالم بما أكنته الصدور و ما أعلنوه ﴿٦٩﴾

٣٦٢- من عيوب النفس: أن تسترسل مع الخواطر السيئة التي تمرُّ بذهنها فترسخ فيها، ودواء ذلك: أن يرد تلك الخواطر في الابتداء، ويدفعها بالذكر الدائم، ويتذكر أنَّ الله مطلع سريرته، وأن يعيش مع قول الله:

﴿ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ [القصص:٦٩]

﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ [طه:٧].

(وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ)

و أنه وحده المعبود المحمود فى الدنيا و الآخرة على ماله من صفات الجلال و الجمال

(لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ)و على ما أسداه إلى خلقه من الإحسان و الإفضال .

*فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ لِعَدْلِهِ وَ حِكْمَتِهِ

(وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ)الَّذِى لَا مُعَقِّبَ لَهُ لِقَهْرِهِ وَ غَلَبَتِهِ وَ حِكْمَتِهِ وَ رَحِمَتِهِ و أنه هو الحاكم فى الدارين فى الدنيا

بالحكم القدرى:-الذى أثره جميع ما خلق و ذرأ

و الحكم الديني:- الذى أثره جميع الشرائع و الأوامر و النواهي

و فى الآخرة:–يحكم بحكمه القدرى و الجزائى .

و لهذا قال:–(وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ)فيجازى كلا منكم بعمله من خير و شر﴿٧٠﴾

قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ
أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ
غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ
وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ
مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ
إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ)هذا امتنان من اللّه على عباده يدعوهم به إلى شكره و القيام بعبوديته و حقه أنه جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل اللّه و ينتشروا لطلب أرزاقهم و معايشهم فى ضيائه و الليل ليهدأوا فيه و يسكنوا و تستريح أبدانهم و أنفسهم من تعب التصرف في النهار فهذا من فضله و رحمته بعباده.

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟

فلو جعل(عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا)دائمًا (إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ)

(مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ)مواعظ اللّه و آياته سماع فهم و قبول و انقياد﴿٧١﴾

(قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ)مواقع العبر و مواضع الآيات فتستنير بصائركم و تسلكوا الطريق المستقيم.

و قال في الليل(أَفَلا تَسْمَعُونَ)

و فى النهار(أَفَلا تُبْصِرُونَ)لأن سلطان السمع أبلغ فى الليل من سلطان البصر و عكسه النهار.

و فى هذه الآيات:-

تنبيه إلى أن العبد ينبغى له أن يتدبر نعم اللّه عليه و يستبصر فيها و يقيسها بحال عدمها

فإنه إذا وازن بين حالة وجودها و بين حالة عدمها تنبه عقله لموضع المنة بخلاف من:-

جرى مع العوائد و رأى أن هذا أمر لم يزل مستمرا و لا يزال و عمى قلبه عن الثناء على اللّه بنعمه و رؤية افتقاره إليها فى كل وقت فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر و لا ذكر﴿٧٢﴾

(وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ)بكم(جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ)
فِي النَّهَارِ بِالْأَسْفَارِ وَ التَّرْحَالِ وَ الْحَرَكَاتِ وَ الْأَشْغَالِ وَ هَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَ النَّشْرِ.

(وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)اللَّهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ كَمَا قَالَ(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [الفُرْقَان: 62] ﴿٧٣﴾

*وَ هَذَا أَيْضًا نِدَاءٌ ثَانٍ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَ التَّوْبِيخِ لِمَنْ عَبَدَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ يُنَادِيهِمُ الرب -تبارك و تعالى -على رؤوس الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ:-

(وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ)أي:-

ينادى اللّه المشركين به العادلين به غيره الذين يزعمون أن له شركاء يستحقون أن يعبدوا و ينفعون و يضرون فإذا كان يوم القيامة أراد اللّه أن يظهر جراءتهم و كذبهم في زعمهم و تكذيبهم لأنفسهم

فـــــ(فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ)أي:-بزعمهم لا بنفس الأمر كما قال:-

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)﴿٧٤﴾

فإذا حضروا و إياهم(وَنَزَعۡنَا)أي:- نزع الله(مِن كُلِّ أُمَّةٍ)من الأمم المكذبة

(شَهِيدًا)يشهد على ما جرى في الدنيا من شركهم و اعتقادهم و هؤلاء بمنزلة المنتخبين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم و المجادلة عن إخوانهم و من هم وإياهم على طريق واحد فإذا برزوا للمحاكمة

(فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ)حجتكم و دليلكم على صحة شرككم هل أمرناكم بذلك؟

هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئا من الإلهية؟

هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب اللّه أو يغنون عنكم؟

فليفعلوا إذا إن كان فيهم أهلية و ليروكم إن كان لهم قدرة

(فَعَلِمُوٓاْ)حينئذ بطلان قولهم و فساده و(أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ)لَا إِلَهَ غَيْرُهُ

أَيْ: فَلَمْ يَنْطِقُوا وَ لَمْ يُحِيرُوا جَوَابًا قد توجهت عليهم الخصومة و انقطعت حجتهم و أفلجت حجة اللّه

(وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ)من الكذب و الإفك و اضمحل و تلاشى وعدم و علموا أن اللّه قد عدل فيهم حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها و استأهلها﴿٧٥﴾

*يخبر تعالى عن حالة قارون و ما فعل و فُعِلَ به و نُصِحَ و وُعِظَ فقال:-

قصة قارون و العبرة منها 76-84

(إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ)

أي: من بني إسرائيل الذين فُضِّلوا على العالمين و فاقوهم في زمانهم و امتن اللّه عليهم بما امتن به

فكانت حالهم مناسبة للاستقامة

(فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ)و لكن قارون هذا بغى على قومه و طغى بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية
*قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:-وَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ ابْنَ عَمِّهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ)أى: كنوز الأموال شيئا كثيرا

(مَآ)حتى(إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ)مفاتح خزائن أمواله(لَتَنُوٓأُ)لتثقل(بِٱلۡعُصۡبَةِ)من العشرة إلى التسعة إلى السبعة و نحو ذلك.

(أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ)الجماعة القوية عن حمل هذه المفاتيح فما ظنك بالخزائن؟

(إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ)ناصحين له محذرين له عن الطغيان:–

(لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ)
الْأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُم المنكبين على محبة الدنيا
أى: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة و تفتخر بها و تلهيك عن الآخرة ﴿٧٦﴾
قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال

(وَٱبۡتَغِ)اسْتَعْمِلْ(فِيمَآ ءَاتَىٰكَ)مَا وَهَبَكَ

(ٱللَّهُ)مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ وَ النِّعْمَةِ الطَّائِلَةِ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ وَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ الَّتِي يَحْصُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ فِي(ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ)و لا تقتصر على مجرد نيل الشهوات و تحصيل اللذات

(وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ)
أى: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك و تبقى ضائعا بل أنفق لآخرتك و استمتع بدنياك استمتاعا لا يثلم دينك و لا يضر بآخرتك مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَ الْمَشَارِبِ وَ الْمَلَابِسِ وَ الْمَسَاكِنِ وَ الْمَنَاكِحِ فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حقًّا و لنفسك عليك حقًّا وَ لِزَوْرِكِ عَلَيْكَ حَقًّا فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.و لأهلك عليك

(وَأَحۡسِن)إلى عباد اللّه(كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ)بهذه الأموال

(وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ)بالتكبر و العمل بمعاصى اللّه و الاشتغال بالنعم عن المنعم
*لَا تكنْ هِمَّتُكَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ الْأَرْضَ وَ تُسِيءَ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ)بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة﴿٧٧﴾

٤٣٥- ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ القصص: ٧٧، هي خمس كلمات متباعدة في المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد تآلفا من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ
وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ
يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾
فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ
لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾

فـــــ(قَالَ)قارون – رادا لنصيحتهم كافرا بنعمة ربه– :

(إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ)أدركت هذه الأموال(عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ)بكسبى و معرفتى بوجوه المكاسب و حذقى

أو على علم من اللّه بحالى يعلم أنى أهل لذلك فلِمَ تنصحونى على ما أعطانى اللّه تعالى؟

*أَنَا لَا أَفْتَقِرُ إِلَى مَا تَقُولُونَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ لِعِلْمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقُّهُ وَ لِمَحَبَّتِهِ لِي فَتَقْدِيرُهُ:- إِنَّمَا أُعْطِيتُهُ لِعِلْمِ اللَّهِ فِيَّ أَنِّي أَهْلٌ لَهُ وَ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ}[الزُّمَرِ: 49]أَيْ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِي وَ كَقَوْلِهِ{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}[فُصِّلَتْ: 50] أَيْ: هَذَا أَسْتَحِقُّهُ.

*قال تعالى مبينا أن عطاءه ليس دليلا على حسن حالة المعطى:–

(أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ)

فما المانع من إهلاك قارون مع مُضِيِّ عادتنا و سنتنا بإهلاك من هو مثله و أعظم إذ فعل ما يوجب الهلاك؟.

(وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ)

لعلم الله تعالى بها إنما يُسْألون سؤال توبيخ و تقرير و يعاقبهم الله على ما علمه منهم._لكثرة ذنوبهم

*بل يعاقبهم اللّه و يعذبهم على ما يعلمه منهم فهم و إن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة و شهدوا لها بالنجاة فليس قولهم مقبولا و ليس ذلك دافعا عنهم من العذاب شيئا لأن ذنوبهم غير خفية فإنكارهم لا محل له

فلم يزل قارون مستمرا على عناده و بغيه و عدم قبول نصيحة قومه فرحا بطرا قد أعجبته نفسه و غره ما أوتيه من الأموال.

*وَ هَكَذَا يَقُولُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ إِذَا رَأَى مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَقُولُ:-لَوْلَا أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ لَمَا أُعْطِيَ﴿٧٨﴾

٣٦٣- أيها الطالب! إن أوتيتَ حفظًا وذكاءً، فانتبه، فقد قال قارون:
﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]
فخسف به، والمؤمن حقًا حاله حال المعترفين بالنعمة، كما قال صاحب الجنة:
﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف:٣٩].
قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

(فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ)

أى: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه قد كان له من الأموال ما كان و قد استعد و تجمل بأعظم ما يمكنه و تلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة جمعت زينة الدنيا و زهرتها و بهجتها و غضارتها و فخرها فرمقته في تلك الحالة العيون و ملأت بِزَّتُهُ القلوب و اختلبت زينته النفوس فانقسم فيه الناظرون قسمين كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة و الرغبة.

فـ(ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا)

أى:الذين تعلقت إرادتهم فيها و صارت منتهى رغبتهم ليس لهم إرادة فى سواها

(لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ)فلم يعاقبنا على ما قلنا لَخسف بنا كما فعل بقارون

(يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ)من الدنيا و متاعها و زهرتها

(إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

و صدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم و أنه ليس وراء الدنيا دار أخرى فإنه قد أعطى منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا و اقتدر بذلك على جميع مطالبه فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم و إن همة جعلت هذا غاية مرادها و منتهى مطلبها لَمِنْ أدنى الهمم و أسفلها و أدناها و ليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية و المطالب الغالية﴿٧٩﴾

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ)الذين عرفوا حقائق الأشياء و نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها:

(وَيۡلَكُمۡ)متوجعين مما تمنوا لأنفسهم راثين لحالهم منكرين لمقالهم

(ثَوَابُ ٱللَّهِ)العاجل من:-لذة العبادة و محبته و الإنابة إليه و الإقبال عليه.

و الآجل من:-الجنة و ما فيها مما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين

(خَيۡرٌ)من هذا الذى تمنيتم و رغبتم فيه فهذه حقيقة الأمر

(لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا)أَيْ: جَزَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ.
كَمَا فِي البخارى 3244 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ :-

«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَ لاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَ لاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ :-
(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)»[السجدة 17] قرة العين هدوؤها و هو كناية عن السرور
*و لكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى
(وَلَا يُلَقَّىٰهَآ)فما يُلَقَّى ذلك و يوفق له(إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ)
الذين حبسوا أنفسهم :-1-على طاعة اللّه 2-و عن معصيته3-و على أقداره المؤلمة
4-و صبروا على جواذب الدنيا و شهواتها أن تشغلهم عن ربهم و أن تحول بينهم و بين ما خلقوا له
*فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب اللّه على الدنيا الفانية(٨٠)
٤٣٦- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ ﴾ القصص: ٨٠
إيثار ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء فمن كان هكذا فهو عالم، ومن آثر العاجل على الآجل فليس بعالم.
فلما انتهت بقارون حالة البغي و الفخر و ازَّيَّنَت الدنيا عنده و كثر بها إعجابه بغته العذاب:-
(فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ)جزاء من جنس عمله
*فكما رفع نفسه على عباد اللّه أنزله اللّه أسفل سافلين هو و ما اغتر به من داره و أثاثه و متاعه.
*ما جاء في البخاري
5790 - عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ:
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-«بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»
(فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ)جماعة و عصبة و خدم و جنود
(يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ)أي: جاءه العذاب فما نصر و لا انتصر(٨١)
(وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ)أي:الذين يريدون الحياة الدنيا الذين قالوا:(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)
الأدب المفرد مخرجا 275 عَنْ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:-
إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الْمَالَ مَنْ أَحَبَّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَ لَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ(صحيح موقوف)
(يَقُولُونَ)متوجعين و معتبرين و خائفين من وقوع العذاب بهم:-
(وَيْكَأَنَّ)أعجبُ عالما
(ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ)يضيق الرزق على من يشاء
فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون ليس دليلا على خير فيه و أننا غالطون في قولنا:-
(إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ و لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) فلم يعاقبنا على ما قلنا

فـــــ(لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا)فضله و منته (لَخَسَفَ بِنَاۖ)

فصار هلاك قارون عقوبة له و عبرة و موعظة لغيره حتى إن الذين غبطوه سمعت كيف ندموا و تغير فكرهم الأول.

(وَيۡكَأَنَّهُۥ)أعجبُ عالما

وَقَدِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فى معنى قوله تعالى ها هنا:أَلَمْ تَرَ أَنَّ

*فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهَا: "وَيْلَكَ اعْلَمْ أَنَّ"وَ لَكِنْ خُفِّفت فَقِيلَ: "وَيْكَ"

(لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ)أى: لا فى الدنيا و لا فى الآخرة﴿٨٢﴾

*لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا و ما صار إليه عاقبة أمره و أن أهل العلم قالوا:–

(ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)رغب تعالى فى الدار الآخرة و أخبر بالسبب الموصل إليها فقال:–

(تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ)

التى أخبر اللّه بها فى كتبه و أخبرت بها رسله التى قد جمعت كل نعيم و اندفع عنها كل مكدر و منغص

(نَجۡعَلُهَا)دارا و قرارا(لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا)تَعَظُّمًا وَ تَجَبُّرًا(فِي ٱلۡأَرۡضِ)

*أى: ليس لهم إرادة فكيف العمل للعلو فى الأرض على عباد اللّه و التكبر عليهم و على الحق

(وَلَا فَسَادًاۚ)و هذا شامل لجميع المعاصى

فإذا كانوا لا إرادة لهم فى العلو فى الأرض و الإفساد لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى اللّه و قصدهم الدار الآخرة و حالهم التواضع لعباد اللّه و الانقياد للحق و العمل الصالح.

و هؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة

*مسلم (2865) عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ قَالَ:-

قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا......قال:-

«وَ إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَ لَا يَبْغِى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»

*وَ أَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ التَّجَمُّلِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ

*مسلم(91) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»قَالَ رَجُلٌ:-

إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَ نَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ:-

«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ(هو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا)وَ غَمْطُ النَّاسِ»

(معناه احتقارهم يقال في الفعل منه غمطه يغمطه وغمطه يغمطه)و لهذا قال:–

(وَٱلۡعَٰقِبَةُ)أى حالة الفلاح و النجاح التى تستقر و تستمر

(لِلۡمُتَّقِينَ)لمن اتقى اللّه تعالى و غيرهم –و إن حصل لهم بعض الظهور و الراحة–

فإنه لا يطول وقته و يزول عن قريب.

و علم من هذا الحصر فى الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو فى الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب و لا لهم منها نصيب ﴿٨٣﴾

*يخبر تعالى عن مضاعفة فضله و تمام عدله فقال:–

(مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ)

شرط فيها أن يأتى بها العامل لأنه قد يعملها و لكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها فهذا لم يجئ بالحسنة

و الحسنة:–اسم جنس يشمل جميع ما أمر اللّه به و رسوله من الأقوال و الأعمال الظاهرة و الباطنة المتعلقة بحق الله تعالى و حق عباده

(فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ)أى:أعظم و أجل و فى الآية الأخرى(فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)هذا التضعيف للحسنة لا بد منه و قد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة كما قال:-(وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) بحسب حال العامل و عمله و نفعه و محله و مكانه

(وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ)و هى كل ما نهى الشارع عنه نَهْىَ تحريم.

(فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)كقوله تعالى:–

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)*كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-

{وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[النَّمْلِ: 90]وَ هَذَا مَقَامُ الْفَصْلِ وَ الْعَدْلِ﴿٨٤﴾

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾
وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾

29-سورة العنكبوت-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ
فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ
سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾
وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

بعض التوجيهات للنبى 85-88

(إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ)

أى: أنزله و فرض فيه الأحكام و بين فيه الحلال و الحرام و أمرك بتبليغه للعالمين و الدعوة لأحكام جميع المكلفين لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط من غير أن يثاب العباد و يعاقبوا

(لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ)إِلَى الْمَوْتِ_الْجَنَّةِ_مَكَّةَ_يَوْمَ الْقِيَامَةِ

*بل لا بد أن يردك إلى معاد يجازى فيه المحسنون بإحسانهم و المسيئون بمعصيتهم.

و قد بينت لهم الهدى و أوضحت لهم المنهج

فإن تبعوك:-فذلك حظهم و سعادتهم

و إن أبوا إلا :-عصيانك و القدح بما جئت به من الهدى و تفضيل ما معهم من الباطل على الحق

فلم يبق للمجادلة محل و لم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب و الشهادة و المحق و المبطل.

و لهذا قال:-(قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ)

و قد علم أن رسوله هو المهتدى الهادى و أن أعداءه هم الضالون المضلون85

(وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ)

لم تكن متحريا لنزول هذا الكتاب عليك و لا مستعدا له و لا متصديا.

(إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ)بك و بالعباد فأرسلك بهذا الكتاب الذى رحم به العالمين و علمهم ما لم يكونوا يعلمون و زكاهم و علمهم الكتاب و الحكمة و إن كانوا من قبل لفى ضلال مبين

فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه علمت أن جميع ما أمر به و نهى عنه فإنه رحمة و فضل من اللّه فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه و تظن أن مخالفه أصلح و أنفع.

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا)معينا

(لِّلْكَٰفِرِينَ)على ما هو من شعب كفرهم و من جملة مظاهرتهم أن يقال في شيء منه إنه خلاف الحكمة و المصلحة و المنفعة86

(وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ)
لَا تَتَأَثَّرْ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكَ وَ صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِكَ لَا تَلْوِى عَلَى ذَلِكَ وَ لَا تُبَالِهِ فَإِنَّ اللّٰهَ مُعْلٍ كَلِمَتَكَ و مؤيدٌ دِينَكَ وَ مُظْهِرٌ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ

(بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ)بل أبلغها و أنفذها و لا تبال بمكرهم و لا يخدعنك عنهاو لا تتبع أهواءهم.

(وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ)أى اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك و غاية عملك

فكل ما خالف ذلك فارفضه من:-1-رياء 2-أو سمعة 3-أو موافقة أغراض أهل الباطل

فإن ذلك داع إلى الكون معهم و مساعدتهم على أمرهم و لهذا قال:-

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)لا فى شركهم و لا فى فروعه و شعبه التى هى جميع المعاصى87

(وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ)بل أخلص للّه عبادتك فإنه (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)

فلا أحد يستحق أن يؤله و يحب و يعبد إلا اللّه الكامل الباقى الذى

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ)و إذا كان كل شيء هالكا مضمحلا سواه فعبادة الهالك الباطل باطلة ببطلان غايتها و فساد نهايتها. كَمَا قَالَ تَعَالَى:(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ26وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)[الرَّحْمَن]

فعبر بالوجه عن الذات و هكذا قوله ها هنا:(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)أَىْ: إِلَّا إِيَّاهُ.

(لَهُ ٱلْحُكْمُ)الْمُلْكُ وَ التَّصَرُّفُ وَ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ فى الدنيا و الآخرة

(وَإِلَيْهِ)لا إلى غيره(تُرْجَعُونَ)يَوْمَ مَعَادِكُمْ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

*فإذا كان ما سوى اللّه باطلا هالكا و اللّه هو الباقي الذي لا إله إلا هو و له الحكم في الدنيا و الآخرة و إليه مرجع الخلائق كلهم ليجازيهم بأعمالهم تعيَّن على من له عقل أن يعبد اللّه وحده لا شريك له و يعمل لما يقربه و يدنيه و يحذر من سخطه و عقابه و أن يقدم على ربه غير تائب و لا مقلع عن خطئه و ذنوبه88

29-تفسير سورة العنكبوت- مكية-بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓ)(١)(أَحَسِبَ)أظَنَّ (ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا)إذ قالوا: آمنا

امتحان الناس فى الدنيا1-9

(وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ)أن الله يتركهم بلا ابتلاء و لا اختبار؟

*يخبر تعالى عن تمام حكمته:–و أن حكمته لا تقتضي أن كل من قال « إنه مؤمن »

و ادعى لنفسه الإيمان أن يبقوا فى حالة:–

يسلمون فيها من الفتن و المحن و لا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم و فروعه

فإنهم لو كان الأمر كذلك:–

لم يتميز الصادق من الكاذب و المحق من المبطل

*و لكن سنته و عادته فى الأولين و فى هذه الأمة أن:–

يبتليهم بالسراء و الضراء و العسر و اليسر و المنشط و المكره و الغنى و الفقر و إدالة الأعداء عليهم فى بعض الأحيان و مجاهدة الأعداء بالقول و العمل و نحو ذلك من الفتن التى ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة و الشهوات المعارضة للإرادة

فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه و لا يتزلزل و يدفعها بما معه من الحق و عند ورود الشهوات الموجبة و الداعية إلى المعاصي والذنوب أو الصارفة عن ما أمر اللّه به و رسوله يعمل بمقتضى الإيمان و يجاهد شهوته دل ذلك على صدق إيمانه و صحته.

و من كان عند ورود الشبهات تؤثر فى قلبه شكا و ريبا و عند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصى أو تصدفه عن الواجبات دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

*و الناس فى هذا المقام درجات لا يحصيها إلا اللّه:–فمستقل و مستكثر

فنسأل اللّه تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة و أن يثبت قلوبنا على دينه

فالابتلاء و الامتحان للنفوس بمنزلة الكير يخرج خبثها و طيبها.

*ابن ماجه 4024 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ:-

دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ و هُوَ يُوعَكُ(الوعك الحمى وقيل ألمها. وقد وعكه المرض وعكا. ووعك فهو موعوك)

فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ قَالَ:-«إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ و يُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ»

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟قَالَ:-«الْأَنْبِيَاءُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟

قَالَ: «ثُمَّ الصَّالِحُونَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا(في النهاية التحوية أن يدير كساء حول سنام لبعير ثم يركبه و الاسم الحوية والجمع الجوايا)وَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ»

*وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ:(أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُوا۟ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ)[آلِ عِمْرَانَ: 142]

وَ مِثْلُهَا فِي سُورَةِ "بَرَاءَةٌ"وَ قَالَ فِي الْبَقَرَةِ:-(أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُوا۟ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡا۟ مِن قَبۡلِكُم مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ)[الْبَقَرَة: 214] ٢

وَ لِهَذَا قَالَ هَاهُنَا:

(وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ)من الأمم و اختبرناهم ممن أرسلنا إليهم رسلنا

(فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ)علمًا ظاهرًا للخلق(ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ)صدق الصادقين فى إيمانهم

(وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ)و كذب الكاذبين ليميز كلَّ فريق من الآخر.

*الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ مِمَّنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَ دَعْوَاهُ.
وَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَ مَا يَكُونُ وَ مَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ .
وَ هَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَ لِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ غَيْرُهُ فِي مِثْلِ:(إِلا لِنَعْلَمَ) [الْبَقَرَة: 143] :- إِلَّا لِنَرَى وَ ذَلِكَ أَنَّ الرُّؤْيَةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ وَ الْعِلْمُ أَعَمُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْدُومِ وَ الْمَوْجُودِ ٣

(أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ)يفوتونا

*أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات و ارتكاب الجنايات أن أعمالهم ستهمل و أن اللّه سيغفل عنهم أو يفوتونه فلذلك أقدموا عليها و سهل عليهم عملها؟

(سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ)أي: ساء حكمهم فإنه حكم جائر لـــ:-

1-تضمنه إنكار قدرة اللّه و حكمته

2-و أن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب اللّه و هم أضعف شيء و أعجزه ٤

(مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ)

يعني: يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه و لقائه المسارع فى مرضاته أبشر بقرب لقاء الحبيب

فإنه آت و كل آت إنما هو قريب فتزود للقائه و سر نحوه مستصحبا الرجاء مؤملا الوصول إليه

و لكن ما كل من يَدَّعِي يُعْطَى بدعواه و لا كل من تمنى يعطى ما تمناه

(وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)فإن اللّه سميع للأصوات عليم بالنيات

فمن كان صادقا فى ذلك:-أناله ما يرجو

و من كان كاذبا:- لم تنفعه دعواه و هو العليم بمن يصلح لحبه و من لا يصلح ٥

(وَمَن جَٰهَدَ)نفسه و شيطانه و عدوه الكافر كَقَوْلِهِ: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ) [فُصِّلَتْ: 46]

أَيْ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ عَمَلِهِ عَلَى نَفْسِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ
وَ لَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا؛ وَ لِهَذَا قَالَ:-
(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

(فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ)لأن نفعه راجع إليه و ثمرته عائدة إليه

(إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ)لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به و لا نهاهم عما نهاهم عنه بُخْلا عليهم.

*و قد علم أن الأوامر و النواهى يحتاج المكلف فيها إلى جهاد لأن نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير و شيطانه ينهاه عنه و عدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغى و كل هذا معارضات تحتاج إلى مجاهدات و سعى شديد.

*ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَعَ غِنَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ جَمِيعِهِمْ مِنْ إِحْسَانِهِ وَ بِرِّهِ بِهِمْ يُجَازِى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ وَ هُوَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَ يَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَيَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَ يُثِيبُ عَلَيْهَا الْوَاحِدَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَ يَجْزِى عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ

كَمَا قَالَ تَعَالَى:(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)[النِّسَاء: 40]

وَ قَالَ هَاهُنَا:(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ)٧

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧
وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ
لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ
وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ
وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ)

أى:أن الذين منَّ اللّه عليهم بالإيمان و العمل الصالح سيكفر اللّه عنهم سيئاتهم لأن الحسنات يذهبن السيئات

(وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)و هي أعمال الخير من واجبات و مستحبات

فهى أحسن ما يعمل العبد لأنه يعمل المباحات أيضا و غيرها ٧

(وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ)أى:و أمرنا الإنسان و وصيناه بوالديه حسنا

أى:ببرهما و الإحسان إليهما بالقول و العمل و أن يحافظ على ذلك و لا يعقهما و يسيء إليهما فى قوله و عمله.

(وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ)و ليس لأحد علم بصحة الشرك باللّه و هذا تعظيم لأمر الشرك

(فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)

فأجازيكم بأعمالكم فبروا والديكم و قدموا طاعتهما إلا على طاعة اللّه و رسوله فإنها مقدمة على كل شيء ٨

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)وعدهم الله فقال:-

(لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي) جملة عباده (ٱلصَّٰلِحِينَ)من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين

كل على حسب درجته و مرتبته عند اللّه فالإيمان الصحيح و العمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه و أنه من أهل الرحمن و الصالحين من عباد اللّه تعالى.

*أحمد 1614 عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أُنْزِلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ. يَوْمَ بَدْرٍ أَصَبْتُ سَيْفًا فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺفَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نَفِّلْنِيهِ فَقَالَ: " ضَعْهُ " ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نَفِّلْنِيهِ فَقَالَ: " ضَعْهُ " ثُمَّ قَامَ فَقَالَ:-يَا رَسُولَ اللهِ نَفِّلْنِيهِ أُجْعَلُ كَمَنْ لَا غَنَاءَ لَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:- ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) ٩

*لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادَّعى الإيمان ليظهر الصادق من الكاذب بيَّن تعالى أن من الناس فريقا لا صبر لهم على المحن و لا ثبات لهم على بعض الزلازل فقال: –

خداع المنافقين و كذب الكافرين و تهديدهم 10-13

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ)

بضرب أو أخذ مال أو تعيير ليرتد عن دينه و ليراجع الباطل

(جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ)

أى: يجعلها صادَّة له عن الإيمان و الثبات عليه كما أن العذاب صادٌّ عما هو سببه.

(وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ)

لأنه موافق للهوى فهذا الصنف من الناس من الذين قال اللّه فيهم:–

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

*وَ لَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِنْ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ -وَ فَتْحٌ وَ مَغَانِمُ لَيَقُولُنَّ هَؤُلَاءِ لَكُمْ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَيْ كُنَّا إخوانكم فى الدينۃ كما قَالَ تَعَالَى:(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[النِّسَاءِ: 141]

وَ قَالَ تَعَالَى:(فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)[الْمَائِدَةِ: 52] ١٠

(أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

حيث أخبركم بهذا الفريق الذى حاله كما وصف لكم فتعرفون بذلك كمال علمه و سعة حكمته.

(وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ)

أي: فلذلك قَدَّرَ مِحَنًا و ابتلاء ليظهر علمه فيهم فيجازيهم بما ظهر منهم لا بما يعلمه بمجرده لأنهم قد يحتجون على اللّه أنهم لو ابتُلوا لَثَبَتُوا.

*و ليختبرَنّ اللَّهُ النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَ السَّرَّاءِ لِيَتَمَيَّزَ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَ مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ فِي الضَّرَّاءِ وَ السَّرَّاءِ إِنَّمَا يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ كَمَا قَالَ(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)[مُحَمَّدٍ: 31]

وَ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ الَّتِي كَانَ فِيهَا مَا كَانَ مِنَ الِاخْتِبَارِ وَ الِامْتِحَانِ:-

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَاأَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)الْآيَةَ [آلِ عِمْرَانَ: 179] ١١

*يخبر تعالى عن افتراء الكفار و دعوتهم للمؤمنين إلى دينهم و فى ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم و الوقوع في مكرهم فقال:–

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا)

فاتركوا دينكم أو بعضه و اتبعونا فى ديننا فإننا نضمن لكم الأمر

(وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ)

وَ آثَامَكُمْ -إِنْ كَانَتْ لَكُمْ آثَامٌ فِي ذَلِكَ -عَلَيْنَا وَ فِي رِقَابِنَا كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ:-"افْعَلْ هَذَا وَ خَطِيئَتُكَ فِي رَقَبَتِي"

*و هذا الأمر ليس بأيديهم فلهذا قال:–

(وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ)

لا قليل و لا كثير. فهذا التحمل و لو رضى به صاحبه فإنه لا يفيد شيئا فإن الحق للّه و اللّه تعالى لم يمكن العبد من التصرف فى حقه إلا بأمره و حكمه و حكمه(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)﴿١٢﴾

و لما كان قوله: (وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ)

قد يتوهم منه أيضا أن الكفار الداعين إلى كفرهم – و نحوهم ممن دعا إلى باطله– ليس عليهم إلا ذنبهم الذى ارتكبوه دون الذنب الذى فعله غيرهم و لو كانوا متسببين فيه قال:–مخبرا عن هذا الوهم

(وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ)أى: أثقال ذنوبهم التى عملوها

(وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ)و هى الذنوب التى بسببهم و من جرائهم

فالذنب الذى فعله التابع لكل من التابع و المتبوع حصته منه هذا لأنه فعله و باشره و المتبوع لأنه تسبب في فعله و دعا إليه كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة و للداعى أجره بالتسبب.

*إِخْبَارٌ عَنِ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ وَ الضَّلَالَةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَ أَنْفُسِهِمْ وَ أَوْزَارًا أخر بِسَبَبِ مَنْ أَضَلُّوا مِنَ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ شَيْئًا كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)[النَّحل: 25]

*مسلم (2674)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ

قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَ مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»

*البخارى 3335 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ-

«لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»

(وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)يَكْذِبُونَ وَ يَخْتَلِقُونَ مِنَ الْبُهْتَانِ و من الشر و تزيينه و قولهم

(وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)﴿١٣﴾

قصة نوح مع قومه 14-15

(وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ)

يخبر تعالى عن حكمه و حكمته فى عقوبة الأمم المكذبة و أن اللّه أرسل عبده و رسوله نوحا ﷺإلى قومه يدعوهم إلى التوحيد و إفراد اللّه بالعبادة و النهى عن الأنداد والأصنام

(فَلَبِثَ فِيهِمۡ)نبيا داعيا (أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا)

و هو لا يَنِى بدعوتهم و لا يفتر فى نصحهم يدعوهم ليلا و نهارا و سرا و جهارا

فلم يرشدوا و لم يهتدوا بل استمروا على كفرهم و طغيانهم حتى دعا عليهم نبيهم نوح ﷺ مع شدة صبره و حلمه و احتماله فقال:–(رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

(فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ)أى: الماء الذى نزل من السماء بكثرة و نبع من الأرض بشدة

(وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ)مستحقون للعذاب.

*بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَا نَجَعَ فِيهِمُ الْبَلَاغُ وَ الْإِنْذَارُ فَأَنْتَ -يَا مُحَمَّدُ -لَا تَأْسَفْ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ بِيَدِهِ الْأَمْرُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ97 وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ)[يُونُس]

وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُكَ وَ يَنْصُرُكَ وَ يُؤَيِّدُكَ وَ يُذِلُّ عَدُوَّكَ وَ يَكْبِتُهُمْ وَ يَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ﴿١٤﴾

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا
إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

(فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ)الذين ركبوا معه أهله و من آمن به (وَجَعَلْنَٰهَآ)أى: السفينة أو قصة نوح

(ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)يعتبرون بها على أن من كذب الرسل آخر أمره الهلاك

و أن المؤمنين سيجعل اللّه لهم من كل هم فرجا و من كل ضيق مخرجا. و جعل اللّه أيضا السفينة أى:- جنسها آية للعالمين يعتبرون بها رحمة ربهم الذي قيض لهم أسبابها و يسر لهم أمرها و جعلها تحملهم و تحمل متاعهم من محل إلى محل و من قُطرٍ إلى قُطرٍ.

*إِنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ أَوْ نَوْعُهَا جَعَلَهُ لِلنَّاسِ تَذْكِرَةً لِنِعَمِهِ عَلَى الْخَلْقِ كَيْفَ نَجَّاهُمْ مِنَ الطُّوفَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ41 وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ42وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ43 إِلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [يس]

وَ قَالَ تَعَالَى:{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ11 لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[الْحَاقَّةِ]﴿١٥﴾

قصة ابراهيم مع قومه و نجاته 16-25

(وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ)

يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى الله فقال لهم:-

(ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ)أى: وحّدوه و أخلصوا له العبادة و امتثلوا ما أمركم به

(وَٱتَّقُوهُ)أن يغضب عليكم فيعذبكم و ذلك بترك ما يغضبه من المعاصى

(ذَٰلِكُمْ)أى: عبادة الله و تقواه

(خَيۡرٞ لَّكُمۡ)من ترك ذلك

و هذا من باب إطلاق « أفعل التفضيل » بما ليس في الطرف الآخر منه شيء فإن ترك عبادة الله و ترك تقواه لا خير فيه بوجه و إنما كانت عبادة الله و تقواه خيرا للناس لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا و الآخرة إلا بذلك و كل خير يوجد فى الدنيا و الآخرة فإنه من آثار عبادة الله و تقواه.

(إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)ذلك فاعلموا الأمور و انظروا ما هو أولى بالإيثار 16

فلما أمرهم بعبادة الله و تقواه نهاهم عن عبادة الأصنام و بيَّن لهم نقصها و عدم استحقاقها للعبودية فقال:–

(إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ)

تنحتونها و تخلقونها بأيديكم و تخلقون لها أسماء الآلهة و تختلقون الكذب بالأمر بعبادتها و التمسك بذلك

(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)فى نقصه و أنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته

(لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا)فكأنه قيل:–قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة لا تملك نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا

*و أن من هذا وصفه لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال ذرة من العبادة و التأله

*و القلوب لا بد أن تطلب معبودا تألهه و تسأله حوائجها فقال – حاثا لهم على من يستحق العبادة–

(فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ)فإنه هو الميسر له المقدر المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه و دنياه

*وَ هَذَا أَبْلَغُ فِي الْحَصْرِ كَقَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الْفَاتِحَة: 5] {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} [التَّحْرِيمِ:11]

وَ لِهَذَا قَالَ: {فَابْتَغُوا}أَيْ: فَاطْلُبُوا {عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ}أَيْ: لَا عِنْدَ غَيْرِهِ فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا

(وَٱعۡبُدُوهُ)وحده لا شريك له لكونه الكامل النافع الضار المتفرد بالتدبير

(وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ)

وحده لكون جميع ما وصل و يصل إلى الخلق من النعم فمنه و جميع ما اندفع و يندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها.

(إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ)

فيجازيكم على ما عملتم و ينبئكم بما أسررتم و أعلنتم فاحذروا القدوم عليه و أنتم على شرككم و ارغبوا فيما يقربكم إليه و يثيبكم – عند القدوم– عليه17

(أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ)يوم القيامة

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ 19

﴿قُلْ ﴾لهم إن حصل معهم ريب و شك فى الابتداء:-

﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾بأبدانكم و قلوبكم﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ﴾

فإنكم ستجدون أمما من الآدميين و الحيوانات لا تزال توجد شيئا فشيئا و تجدون النبات و الأشجار كيف تحدث وقتا بعد وقت و تجدون السحاب و الرياح و نحوها مستمرة في تجددها بل الخلق دائما فى بدء و إعادة فانظر إليهم وقت موتتهم الصغرى-النوم-و قد هجم عليهم الليل بظلامه فسكنت منهم الحركات و انقطعت منهم الأصوات و صاروا في فرشهم و مأواهم كالميتين

ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى انفلق الإصباح فانتبهوا من رقدتهم و بعثوا من موتتهم قائلين:-

«الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» و لهذا قال:-

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾بعد الإعادة

﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾و هى النشأة التى لا تقبل موتا و لا نوما و إنما هو الخلود و الدوام فى إحدى الدارين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

فقدرته تعالى لا يعجزها شيء و كما قدر بها على ابتداء الخلق فقدرته على الإعادة من باب أولى و أحرى20

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾

أى: هو المنفرد بالحكم الجزائى و هو إثابة الطائعين و رحمتهم و تعذيب العاصين و التنكيل بهم.

*هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ لَا يُسأل عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ مَهْمَا فَعَلَ فَعَدْلٌ لأنه الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ:-

سنن أبي داود 4699 - عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ:-

لَهُ وَقَعَ فِي نَفْسِى شَىْءٌ مِنَ الْقَدَرِ فَحَدِّثْنِى بِشَىْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِى قَالَ:-

«لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَ أَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَ هُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ وَ لَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَ لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَ لَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ»

*وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:{يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} أَيْ: تَرْجِعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴾أى:ترجعون إلى الدار التى بها تجرى عليكم أحكام عذابه و رحمته

فاكتسبوا فى هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات و ابتعدوا من أسباب عذابه و هى المعاصى21

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾

أي: يا هؤلاء المكذبون المتجرؤن على المعاصي لا تحسبوا أنه مغفول عنكم أو معجزون للّه فى الأرض و لا في السماء فلا تغرنكم قدرتكم و ما زينت لكم أنفسكم و خدعتكم من النجاة من عذاب الله فلستم بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ)يتولاكم فيحصل لكم مصالح دينكم و دنياكم

(وَلَا نَصِيرٍ)ينصركم فيدفع عنكم المكاره22

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ)

يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخيرو حصل لهم الشر و أنهم الذين كفروا به و برسله و بما جاءوهم به و كذبوا بلقاء اللّه فليس عندهم إلا الدنيا فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك و المعاصى لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك و لهذا قال تعالى:-

(أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي)أى: فلذلك لم يعلموا سببا واحدا يحصلون به الرحمة و إلا لو طمعوا فى رحمته لعملوا لذلك أعمالا و الإياس من رحمة اللّه من أعظم المحاذير

و هو نوعان:-

1-إياس الكفار منها و تركهم جميع سبب يقربهم منها

2-و إياس العصاة بسبب كثرة جناياتهم أوحشتهم فملكت قلوبهم فأحدث لها الإياس

(وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)مؤلم موجع.

و كأن هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم عليه السلام لقومه و ردهم عليه و اللّه أعلم بذلك (٢٣)

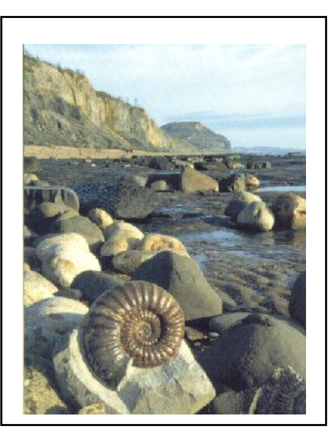
الاعجاز العلمى فى(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)

معلومات مختزنة في صخور الأرض

لقد أودع الله تعالى فى ذرات الصخور معلومات حول تاريخ تشكل هذه الصخور وكيف تشكلت.

هذه المعلومات تروى بداية خلق وتشكل هذه الصخور.

طبعاً المعلومات ليست مكتوبة باللغة التي نعرفها بل مكتوبة بلغة خاصة اكتشفها العلماء حديثاً وحروفها الذرات والجزيئات وقواعدها هى القوانين الفيزيائية التي خلقها الله وسخرها لنا لتكون دليلاً ومرشداً نستطيع من خلاله معرفة بداية و أسرار الخلق.



يبحث العلماء اليوم في طبقات التراب عن أسرار الخلق

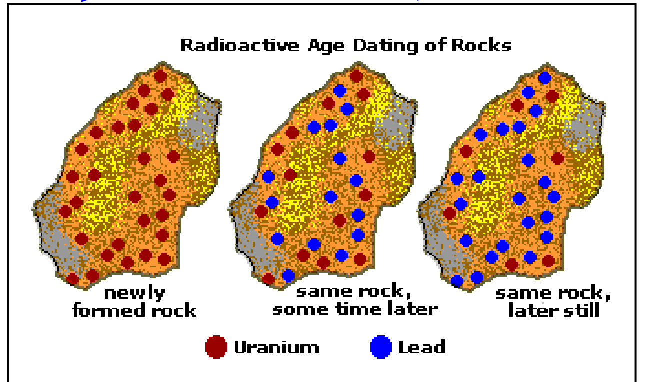
وقد لاحظوا أن كل طبقة تسجل تاريخاً محدداً من عمر الأرض.

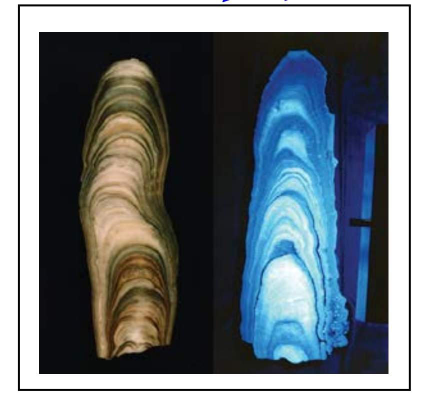
وهنا نتذكر قوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [العنكبوت: 20]

ففي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن أسرار بدء الخلق مكتوب في الأرض.

فكل طبقة من طبقات الصخور وبخاصة الصخور الرسوبية تحكي لنا رواية حياتها والظروف التي مرت بها وقد أودع الله في الصخور البركانية ما يسمى

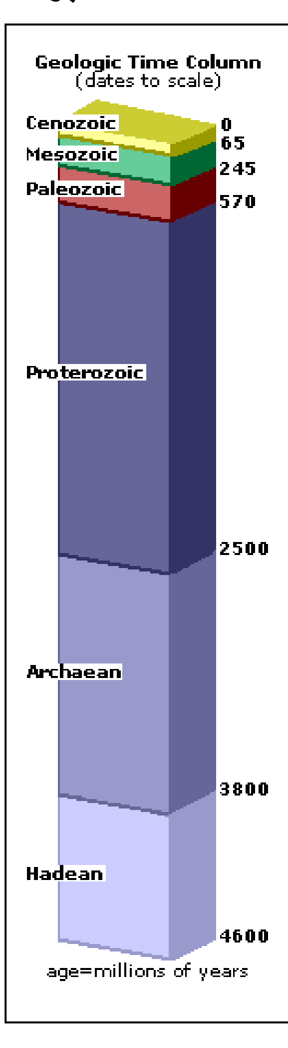
النظائر المشعة مثل عنصر الكربون (الكربون المشع) واليورانيوم والثوريوم...
و التى تدلنا على عمر هذه الصخور وظروف تكوّنها.
حيث اكتشف العلماء القوانين التي تحكم هذا العنصر وكيف تنخفض نسبة الإشعاع مع مرور الزمن.
حيث يعمل العلماء على قياس كمية الإشعاع المتبقية وبالتالي يحسبون عمر هذه الصخرة. لقد سخر الله للبشر اختراع أجهزة قياس واكتشاف القوانين الفيزيائية
وهذا ما ساعدهم اليوم على تحديد عمر الأرض وعمر القمر وعمر النجوم وعمر الكون...
مثال: نصف عمر half-life الكربون 14 هو 5730 سنة
أي كل 5730 سنة تتحول نصف ذرات الكربون 14 إلى نتروجين 14 ثم كلما مضى هذا العمر تحولت نصف الكمية المتبقية و هكذا بشكل سلسلة تحولات حتى تتبقى كمية صغيرة جداً
(بعد أكثر من خمسين ألف سنة تقريباً تكون كمية الكربون المتبقية غير قابلة للقياس).
يتحول عنصر الكربون 14 بمرور الزمن إلى عنصر آخر هو النتروجين
وهناك فترات متساوية (مدة كل منها 5730 سنة) تسمى نصف عمر العنصر
حيث تتحول نصف الكمية خلال هذه الفترة إلى عنصر آخر
ثم تتحول نصف الكمية المتبقية خلال نفس الزمن إلى ذلك العنصر...
وهكذا وفق قانون ثابت سخره الله تعالى لنا لنكتشف من خلاله عمر هذه الصخور.ونود في هذا المقام أن نوجه سؤالاً لكل من يدعى أن الكون قد وجد بالمصادفة:-من أين جاء هذا التقدير المحكم و هذه السجلات المحفوظة بعناية فائقة؟
ومن الذي نظم هذه القوانين الدقيقة وجعل كل شيء منظماً..
هل هى الطبيعة أم خالق الطبيعة عز وجل؟ يقول تعالى:
(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[لقمان: 11]





الوسم على اليمين: يمثل صخرة تشكلت قديماً ونرى كيف تقل نسبة اليورانيوم والذى يتحول تدرجياً إلى رصاص مع مرور الزمن (الرصاص باللون الأزرق اليورانيوم باللون الأحمر).
الوسم على اليسار :صورة لعينة كلسية مأخوذة من أحد الكهوف الحلقات تسجل تاريخ هذا الكهف والظروف السائدة خلال فترة محددة فى الماضى إن الرطوبة و قطرات المطر ساهم فى تشكل هذه الحلقات خلال آلاف السنين.... فسبحان الخالق العظيم!
بناء على المعلومات المختزنة في الأرض و التى تم رصدها وتسجيلها
تمكن العلماء من معرفة و تصنيف تاريخ الأرض إلى مراحل كما هو مبين في الرسم فقد تبين أن عمر الأرض يبلغ بحدود 4600 مليون سنة و قد مرت بعدة عصور كل عصر له خصائصه ومدته الزمنية.

و للبحث بقية فى هذا الرابط



فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضٗا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ
وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٖ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

(فَمَا كَانَ جَوَابَ)مجاوبة(قَوْمِهِۦٓ)قوم إبراهيم إبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته و الاهتداء بنصحه و رؤية نعمة اللّه عليهم بإرساله إليهم و إنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة.

(إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ)أشنع القتلات و هم أناس مقتدرون لهم السلطان فألقوه في النار
*وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَامَ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانُ وَ تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ فَعَدَلُوا إِلَى:-اسْتِعْمَالِ جَاهِهِمْ وَ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ
(قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ97فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)[الصَّافَّات]
وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ حَشَدوا فِي جَمْعِ أَحطَابٍ عَظِيمَةٍ مُدَّةً طَوِيلَةً و حَوّطوا حَوْلَهَا ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّارَ فَارْتَفَعَ لَهَا لَهَبٌ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ:-وَ لَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا
ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَكَتَّفُوهُ وَ أَلْقَوْهُ فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ ثُمَّ قَذَفُوا بِهِ فِيهَا فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَ سَلَامًا وَ خَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا بَعْدَ مَا مَكَثَ فِيهَا أَيَّامًا. وَ لِهَذَا وَ أَمْثَالِهِ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا.
فَإِنَّهُ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلرَّحْمَنِ وَ جَسَدَهُ لِلنِّيرَانِ وَ سَخَا بِوَلَدِهِ لِلْقُرْبَانِ وَ جَعَلَ مَالَهُ لِلضِّيفَانِ وَ لِهَذَا اجْتَمَعَ عَلَى مَحَبَّتِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ.

(فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ)سَلّمه اللَّهُ مِنهَا بِأَنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَ سَلَامًا

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ)فيعلمون:-

1-صحة ما جاءت به الرسل 2-و بِرَّهُمْ و نصحهم 3-و بطلان قول من خالفهم و ناقضهم

4-و أن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا و حث بعضهم بعضا على التكذيب24

(وَقَالَ)لهم إبراهيم فى جملة ما قاله من نصحه: -

(إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ)

أي: غاية ذلك مودة فى الدنيا ستنقطع و تضمحل

*لِتَجْتَمِعُوا عَلَى عِبَادَتِهَا فِي الدُّنْيَا صَدَاقَةً وَ أُلْفَةً مِنْكُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ)تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ

(وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا)أَيْ: يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْمَتْبُوعِينَ وَ الْمَتْبُوعُونَ الْأَتْبَاعَ

(كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا) [الأَعْرَاف: 38] وَ قَالَ (الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ) [الزُّخْرُف: 67]

وَ قَالَ هَاهُنَا (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

(وَمَأۡوَىٰكُمُ)مَصِيرُكُمْ وَ مَرْجِعُكُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَى (ٱلنَّارُ)

(وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ)وَ مَا لَكَمَ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُكُمْ وَ لَا مُنْقِذٍ يُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وَ هَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَبِخِلَافِ ذَلِكَ.

*أي: يتبرأ كل من العابدين و المعبودين من الآخر(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)

فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه و يلعنهم؟

قصة ابراهيم مع لوط 26-27

و أن مأوى الجميع العابدين و المعبودين«النَّار»و ليس أحد ينصرهم من عذاب اللّه و لا يدفع عنهم عقابه25

(فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ)أَنَّهُ آمَنُ لَهُ لُوطٌ يُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ يَقُولُونَ هُوَ:-لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ

أرسل فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ إِلَى أَهْلِ "سَدوم" وَ إِقْلِيمِهَا وَ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَ مَا سَيَأْتِي.

*أى: لم يزل إبراهيم عليه السلام يدعو قومه و هم مستمرون على عنادهم إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه اللّه و أرسله إلى قومه كما سيأتى ذكره.

(وَقَالَ)إبراهيم عليه السلام حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئا:–

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ)أى: هاجر أرض السوء و مهاجر إلى الأرض المباركة و هي الشام

(إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ)أى: الذى له القوة و هو يقدر على هدايتكم

(ٱلۡحَكِيمُ)فِي أَقْوَالِهِ وَ أَفْعَالِهِ وَ أَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ وَ الشَّرْعِيَّةِ.

*و لكنه حَكِيمٌ ما اقتضت حكمته ذلك و لما اعتزلهم و فارقهم و هم بحالهم لم يذكر اللّه عنهم أنه أهلكهم بعذاب بل ذكر اعتزاله إياهم و هجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر فى الإسرائيليات:–

أن اللّه تعالى فتح على قومه باب البعوض فشرب دماءهم و أكل لحومهم و أتلفهم عن آخرهم

فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعى و لم يوجد فلو كان اللّه استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة

و لكن لعل من أسرار ذلك:–

أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق و أفضلهم و أحلمهم و أجلهم فلم يدع على قومه كما دعا غيره و لم يكن اللّه ليجري بسببه عذابا عاما.

و مما يدل على ذلك:–

أنه راجع الملائكة فى إهلاك قوم لوط و جادلهم و دافع عنهم و هم ليسوا قومه و اللّه أعلم بالحال(٢٦)

(وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ)أى: بعد ما هاجر إلى الشام

*كَقَوْلِهِ تَعَالَى:(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًا جَعَلْنَا نَبِيًّا)[مَرْيَمَ: 49]

أَيْ: إِنَّهُ لَمَّا فَارَقَ قومه أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ وَ وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ فِي حَيَاةِ جَدِّهِ.

وَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ:(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً)[الأنبياء: 72]

(وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ)فلم يأت بعده نبى إلا من ذريته و لا نزل كتاب إلا على ذريته حتى ختموا بالنبى محمد ﷺ و عليهم أجمعين.

*و هذا من أعظم المناقب و المفاخر أن :–

تكون مواد الهداية و الرحمة و السعادة و الفلاح فى ذريَّته و على أيديهم اهتدى المهتدون و آمن المؤمنون و صلح الصالحون.

(وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ)

من الزوجة الجميلة الْحَسَنَةُ الصَّالِحَةُ فائقة الجمال و الرزق الواسع الهنىَّ وَ الْمَنْزِلُ الرَّحْب وَ الْمَوْرِدُ الْعَذْبُ وَ الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ وَ الذِّكْرُ الْحَسَنُ و الأولاد الذين بهم قرت عينه و معرفة اللّه و محبته و الإنابة إليه.

(وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)بل هو و محمد صلى اللّه عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق و أعلاهم منزلة فجمع اللّه له بين سعادة الدنيا و الآخرة.

*جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا الْمَوْصُولَةِ بِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ فَكُلُّ أَحَدٍ يُحِبُّهُ وَ يَتَوَلَّاهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ مَعَ الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ كَمَا قَالَ:-(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى) [النَّجْمِ: 37]

أَيْ: قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ وَ كَمَّلَ طَاعَةَ رَبِّهِ

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:(وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)كَمَا قَالَ(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ120شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍمُسْتَقِيمٍ121 وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)[النحل] (٢٧)

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٢٨﴾

قصة لوط مع قومه 28-35

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ)فى أدبارهم

(وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ)باعتدائكم على المارة فى السبيل فامتنع الناس من المرور خوفاً منكم.

(وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ)

*يَفْعَلُونَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَ الْأَفْعَالِ فِي مَجَالِسِهِمُ الَّتِى يَجْتَمِعُونَ فِيهَا لَا يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَمِنْ قَائِلٍ:-كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي الْمَلَأِ
وَ مِنْ قَائِلٍ:-كَانُوا يَتَضَارَطُونَ وَ يَتَضَاحَكُونَ
وَ مِنْ قَائِلٍ:-كَانُوا يُنَاطِحُونَ بَيْنَ الْكِبَاشِ وَ يُنَاقِرُونَ بَيْنَ الدُّيُوكِ وَ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَصْدُرُ عَنْهُمْ وَ كَانُوا شَرًّا مِنْ ذَلِكَ.

*تقدم أن لوطا عليه السلام آمن لإبراهيم و صار من المهتدين به و قد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم و إنما هو ابن أخى إبراهيم.فقوله تعالى:(وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)
و إن كان عاما فلا يناقض كون لوط نبيا رسولا و هو ليس من ذريته لأن الآية جيء بها لسياق المدح و الثناء على الخليل و قد أخبر أن لوطا اهتدى على يديه و من اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادى و اللّه أعلم. فأرسل اللّه لوطا إلى قومه و كانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة فى الذكور و تقطيع السبيل و فشو المنكرات في مجالسهم فنصحهم لوط عن هذه الأمور و بيَّن لهم قبائحها فى نفسها و ما تئول إليه من العقوبة البليغة فلم يرعووا و لم يذكروا.

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

فأيس منهم نبيهم و علم استحقاقهم العذاب و جزع من شدة تكذيبهم له فدعا عليهم

*وَ هَذَا مِنْ كُفْرِهِمْ وَ اسْتِهْزَائِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ﴿٢٩﴾ وَ لِهَذَا اسْتَنْصَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ فَقَالَ:-

(قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ)فاستجاب اللّه دعاءه فأرسل الملائكة لإهلاكهم﴿٣٠﴾

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ
إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا
وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا
فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ
وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾

*لِمَا اسْتَنْصَرَ لُوطٌ عليه السلام اللَّهَ عَلَيْهِمْ بَعَثَ اللَّهُ لِنُصْرَتِهِ مَلَائِكَةً فَمَرُّوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي هَيْئَةِ أَضْيَافٍ فَجَاءَهُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ نَكِرَهم وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً فَشَرَعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَ يُبَشِّرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنَ امْرَأَتِهِ سَارَّةَ -وَ كَانَتْ حَاضِرَةً - فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ "هُودٍ" وَ"الْحِجْرِ". فَلَمَّا جَاءَتْ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى وَ أَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ أَخَذَ يُدَافِعُ لَعَلَّهُمْ يُنْظَرُون لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ

(وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ)

فمروا بإبراهيم قبل و بشروه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟

(قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ)31

فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط فجعل يراجعهم و يقول:-

(قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا) فـــــ(قَالُواْ)له(نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ)

(كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ)الْهَالِكِينَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُمَالِئُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَ بَغْيِهِمْ وَ دُبُرِهِمْ32

(وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا)ثُمَّ سَارُوا مِنْ عِنْدِهِ فَدَخَلُوا عَلَى لُوطٍ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حِسَانٍ

فَلَمَّا رَآهُمْ كَذَلِكَ(سِيٓءَ بِهِمۡ)ساءه ذلك لأنه ظنهم ضيوفًا من البشر
*أَيْ: اهتمَّ بِأَمْرِهِمْ إِنْ هُوَ أَضَافَهُمْ خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ وَ إِنْ لَمْ يُضِفْهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ

وَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَمْرِهِمْ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ.

*ثم مضوا حتى أتوا لوطا فساءه مجيئهم(وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا)حزن بسبب وجودهم لعلمه خبث فعل قومه بحيث إنه لم يعرفهم و ظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف فخاف عليهم من قومه

(وَقَالُوا)له:-(لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ)و أخبروه أنهم رسل اللّه

(إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا)عذابا

(مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

فأمروه أن يسري بأهله ليلا فلما أصبحوا قلب اللّه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها و أمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم و أهلكتهم فصاروا سَمَرًا من الأسمار و عبرة من العِبر.

*وَ ذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام اقْتَلَعَ قُرَاهُمْ مِنْ قَرَارِ الْأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ.
وَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ
وَ هُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْمَعَادِ 34 وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

(وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ)من ديار قوم لوط(ءَايَةً)آثارا (بَيِّنَةً)وَاضِحَةً
وَ جَعَلَ اللَّهُ مَكَانَهَا بُحَيْرَةً خَبِيثَةً مُنْتِنَةً وَ جَعَلَهُمْ عِبْرَةً إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ

(لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

العِبر بقلوبهم فينتفعون بها كَقَوله(وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ 137 وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)[الصَّافَّات] 35

(و)أرسلنا(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ)القبيلة المعروفة المشهورة

(أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ)

فأمرهم بعبادة اللّه وحده لا شريك له و الإيمان بالبعث و رجائه و العمل له وَ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ) [الْمُمْتَحَنَة: 6]

(وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)لا تقيموا عليها

قصة شعيب مع قومه و هود و صالح و موسى 36-40

*و نهاهم عن الإفساد في الأرض بـــــ:-

1-بخس المكاييل و الموازين 2-و السعى بقطع الطرق فكذبوه فأخذهم عذاب اللّه ﴿٣٦﴾

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ)فأخذتهم الزلزلة الشديدة

*فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ زَلْزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ وَ صَيْحَةٍ أَخْرَجَتِ الْقُلُوبَ مِنْ حَنَاجِرِهَا .
وَ عَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ الَّذِى أَزْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.
وَ قَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ "الْأَعْرَافِ وَ هُودٍ وَ الشُّعَرَاءِ".

(فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ)صَرْعى هالكين٣٧

(وَعَادٗا وَثَمُودَاْ)و كذلك ما فعلنا بعاد و ثمود
*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ كَيْفَ أَبَادَهُمْ وَ تَنَوَّعَ فِي عَذَابِهِمْ فَأَخَذَهُمْ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ

(وَعَادٗا)قَوْمُ هُودٍ وَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ وَ هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ بِلَادِ الْيَمَنِ

(وَثَمُودَاْ)قَوْمُ صَالِحٍ وَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقُرَى. وَ كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جَيِّدًا وَ تَمُرُّ عَلَيْهَا كَثِيراً.

(وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ)

و قد علمتم قصصهم و تبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم و آثارهم التى بانوا عنها

و قد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة فكذبوهم و جادلوهم.

(وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ)حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل.

(فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ)أى:-سبيل الله و عن طريق الإيمان به وبرسله

(وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ)

فى كفرهم و ضلالهم معجبين به يحسبون أنهم على هدى و صواب بينما هم فى الضلال غارقون٣٨

وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ
ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ
ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾
وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ
إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ)و كذلك قارون و فرعون و هامان

(وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)

حين بعث اللّه إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات و البراهين الساطعات فلم ينقادوا

(فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ)

على عباد اللّه فأذلوهم و على الحق فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة

(وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ)اللّه و لا فائتين بل سلموا و استسلموا﴿٣٩﴾

(فَكُلًّا)من هؤلاء الأمم المكذبة(أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ)على قدره و بعقوبة مناسبة له

(فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا)أى: عذابا يحصبهم كقوم عاد حين أرسل اللّه عليهم الريح العقيم

و (سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ)
*وَ هُمْ عَادٌ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا:-مَنْ أشدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ صَرْصَرٌ بَارِدَةٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ
عَاتِيَةٌ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ جِدًّا تَحمِلُ عَلَيْهِمْ حَصْبَاءَ الْأَرْضِ فَتَقَلِبُهَا عَلَيْهِمْ وَ تَقْتَلِعُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَتَرْفَعُ الرَّجُلَ
مِنْهُمْ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَخُهُ فَيَبْقَى بَدَنًا بِلَا رَأْسٍ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ

(وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ)كقوم صالح هُمْ ثَمُودُ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَ ظَهَرَتْ لَهُمُ الدَّلَالَةُ
مِنْ تِلْكَ النَّاقَةِ الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ مِثْلَ مَا سَأَلُوا سَوَاءً بِسَوَاءٍ
وَ مَعَ هَذَا مَا آمَنُوا بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى طُغْيَانِهِمْ وَ كُفْرِهِمْ وَ تَهَدَّدُوا نَبِيَّ اللَّهِ صَالِحًا و مَنْ آمَنَ مَعَهُ

و توعّدوهم بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَ يَرْجُمُوهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخَمَدَتِ الْأَصْوَاتَ مِنْهُمْ وَ الْحَرَكَاتِ.

(وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ)كقارون الَّذِى طَغَى وَ بَغَى وَ عَتَا وَ عَصَى الرَّبَّ الْأَعْلَى وَ مَشَى فِي الْأَرْضِ مَرَحًا وَ فَرِحَ وَ مَرِحَ وَ تَاهَ بِنَفْسِهِ وَ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ وَ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَ بِدَارِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

(وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا)كفرعون و هامان و جنودهما. أُغْرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ

(وَمَا كَانَ ٱللَّهُ)ما ينبغى و لا يليق به تعالى

(لِيَظْلِمَهُمْ)أن يظلمهم لـ:–كمال عدله و غناه التام عن جميع الخلق.

(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)جَزَاءً وِفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ.

*منعوها حقها التى هي بصدده فإنها مخلوقة لعبادة اللّه وحده فهؤلاء وضعوها فى غير موضعها و أشغلوها بالشهوات و المعاصى فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها﴿٤٠﴾

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا)

هذا مثل ضربه اللّه لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز و التَّقَوِّى و النفع و أن الأمر بخلاف مقصوده فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتا يقيها من الحر و البرد و الآفات

ضرب مثل لمن اتخذ من دون الله أولياء 41-45

(وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ)أضعفها و أوهاها

(لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ)فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة و بيتها من أضعف البيوت فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه

و حين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم و يستنصرونهم ازدادوا ضعفا إلى ضعفهم و وهنا إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم و ألقوها عليهم و تخلوا هم عنها على أن أولئك سيقومون بها فخذلوهم فلم يحصلوا منهم على طائل و لا أنالوهم من معونتهم أقل نائل.

(لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم و حال من اتخذوهم لم يتخذوهم و لتبرأوا منهم و لتولوا الرب القادر الرحيم الذى إذا تولاه عبده و توكل عليه كفاه مئونة دينه و دنياه و ازداد قوة إلى قوته فى قلبه و فى بدنه و حاله و أعماله﴿٤١﴾

و لما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه و أنها ليست بشىء بل هى مجرد أسماء سموها و ظنون اعتقدوها و عند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها و عدمها و لهذا قال:–

(إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ)أى: إنه تعالى يعلم – و هو عالم الغيب و الشهادة– أنهم ما يدعون من دون اللّه شيئا موجودا و لا إلها له حقيقة

كقوله تعالى:(إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)و قوله:-
(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)

(وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ)الذى له القوة جميعا التى قهر بها جميع المخلوقات

(ٱلْحَكِيمُ)الذى يضع الأشياء مواضعها الذى أحسن كل شيء خلقه و أتقن ما أمره ﴿٤٢﴾

(وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ)

أي: لأجلهم و لانتفاعهم و تعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم و لأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة فيتضح المعنى المطلوب بسببها فهى مصلحة لعموم الناس.

(و) لكن (وَمَا يَعْقِلُهَآ)بفهمها و تدبرها و تطبيقها على ما ضربت له و عقلها في القلب

(إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ)أى: أهل العلم الحقيقى الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

و هذا مدح للأمثال التى يضربها و حثٌّ على تدبرها و تعقلها و مدح لمن يعقلها و أنه عنوان على أنه من أهل العلم فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

و السبب فى ذلك:–

أن الأمثال التى يضربها اللّه في القرآن إنما هى للأمور الكبار و المطالب العالية و المسائل الجليلة فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها لاعتناء اللّه بها و حثه عباده على تعقلها و تدبرها فيبذلون جهدهم فى معرفتها.

*و أما من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك:–

دليل على أنه ليس من أهل العلم لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من باب أولى و أحرى.

و لهذا أكثر ما يضرب اللّه الأمثال فى أصول الدين و نحوها.

*عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ:-مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي لِأَنِّ سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:-
(وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ)﴿٤٣﴾

(خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ)يَعْنِي: لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَ اللَّعِبِ

هو تعالى المنفرد بخلق السماوات على:–

علوها و ارتفاعها و سعتها و حسنها و ما فيها من الشمس والقمر والكواكب و الملائكة و الأرض و ما فيها من الجبال و البحار و البرارى و القفار و الأشجار و نحوها

و كل ذلك خلقه بالحق أى:–لم يخلقها عبثا و لا سدى و لا لغير فائدة

و إنما خلقها لــ:–يقوم أمره و شرعه و لتتم نعمته على عباده و ليروا من حكمته و قهره و تدبيره ما يدلهم على أنه وحده معبودهم و محبوبهم و إلههم.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)على كثير من المطالب الإيمانية إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عيانا(44)

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ)يأمر تعالى بتلاوة وحيه و تنزيله و هو هذا الكتاب العظيم

و معنى تلاوته:–

اتباعه بامتثال ما يأمر به و اجتناب ما ينهى عنه و الاهتداء بهداه و تصديق أخباره و تدبر معانيه و تلاوة ألفاظه

فصار تلاوة لفظه جزء المعنى و بعضه

و إذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب عُلم أن إقامة الدين كله (داخلة فى تلاوة الكتاب) فيكون قوله:–

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ)من باب عطف الخاص على العام لفضل الصلاة و شرفها و آثارها الجميلة و هى

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ):–كل ما استعظم و استفحش من المعاصى التى تشتهيها النفوس.

(وَالْمُنكَرِ):–كل معصية تنكرها العقول و الفطر.

و وجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر:–

أن العبد المقيم لها المتمم لأركانها و شروطها و خشوعها يستنير قلبه و يتطهر فؤاده و يزداد إيمانه

و تقوى رغبته فى الخير و تقل أو تعدم رغبته في الشر

فبالضرورة مداومتها و المحافظة عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء و المنكر فهذا من أعظم مقاصدها و ثمراتها.

و ثَمَّ فى الصلاة مقصود أعظم من هذا و أكبر و هو ما اشتملت عليه من ذكر اللّه بالقلب و اللسان و البدن.

فإن اللّه تعالى إنما خلق الخلق لعبادته و أفضل عبادة تقع منهم الصلاة و فيها من عبوديات الجوارح كلها ما ليس فى غيرها و لهذا قال:–

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

*و يحتمل أنه لما أمر بالصلاة و مدحها أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين لكن الأول أولى لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها و لأنها – كما تقدم– بنفسها من أكبر الذكر.

*يَعْنِي: أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ:-

عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَ الْمُنْكَرَاتِ أَيْ: إِنَّ مُوَاظَبَتَهَا تَحملُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ

*وَ لَذِكْرُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ أَكْبَرُ إِذَا ذَكَرُوهُ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاه

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)من خير و شر فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء و أوفاه(45)

الاعجاز فى(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) الرابط

*الرابط بين الشرك و بيت العنكبوت رابط قوى لأن بيت العنكبوت لا يقتصر على كونه مأوى يسكن فيه

بل هو في نفس الوقت مصيدة تقع في بعض حبائلها اللزجة الحشرات الطائرة مثل الذباب و غيرها.......

لتكون فريسة يتغذى عليها كذلك فإن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا أنداداً من دون الله تعالى ودعوا الناس إلى أندادهم إنما يدعونهم إلى مصيدة متقنة يكون في دخولها حتفهم وهلاكهم فى الدنيا والآخرة

*فالحذر كل الحذر من أصحاب الدعوات الفاسدة الذين اتخذوا من دون الله أنداداً سواء كان هذا الندّ هو:- المال أو الهوى

*و ذلك من خلال الإشارة إلى خيوطهم الخفية التي يصطادون من خلالها ضحاياهم سواء كانت هذه الخيوط هي المال أو الجنس أو المناصب أو غيرها من الخيوط الخفية و التى ما إن تمسك بالضحية حتى تقضي عليها و تهلكها

بيت العنكبوت من منظور علمى:-

*كشف العلم مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت و ليس الذكر و هي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة إلى وقت قريب كما كشف العلم أن خيط العنكبوت:-

أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات و أقوى من خيط الحرير و أكثر منه مرونة

فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجات العنكبوت وافياً بالغرض و زيادة و يكون بالنسبة له قلعة أمينة حصينة.

و الواقع أن هناك سراً بيولوجياً كشف العلم عنه لنا مؤخراً فالحقيقة إن بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان و سكينة و طمأنينة

*فالعنكبوت الأنثى :-تقتل ذكرها بعد أن يلقحها و تأكله و لهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه و لا يحاول أن يضع قدمه فى بيتها.

*و الأبناء:- يأكلون بعضهم بعضاً بعد الخروج من البيض

و تغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً و كميناً و مقتلاً لكل حشرة صغيرة تفكر أن تقترب منه و كل من يدخل البيت من زوار و ضيوف يقتل

*و لذلك يظن البعض أن وهن بيت العنكبوت يكمن في وهن خيوطه و لكن الوهن فى بيت العنكبوت كما رأينا سابقاً هو وهن في العلاقات الاجتماعية و الحيوية فى هذا البيت

علاوة على وهن عدم الحماية من العوامل البيئية الخارجية مثل:-

المطر و الحر و البرد و الشمس و الأتربة كما قال بعض المفسرين قديماً

لأن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت على الإطلاق فهو بيت محروم من معانى المودة و الرحمة التى يقوم على أساسها كل بيت سعيد و ذلك لأن الأنثى فى بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب و ذلك بقتله و افتراس جسده لأنها أكبر حجما و أكثر شراسة منه

و فى بعض الحالات:- تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة

و فى بعض الأنواع :–تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذى عادة ما تحتضنه في كيس من الحرير.

*و عندما يفقس البيض تخرج العناكب الصغار فتجد نفسها فى مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معا فيقتل الأخ أخاه و أخته و تقتل الأخت أختها و أخاها حتى تنتهى المعركة ببقاء عدد قليل من العنيكبات التى تنسلخ من جلدها و تمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى

و الواحد تلو الآخر بذكريات تعيسه لينتشر الجميع فى البيئة المحيطة و تبدأ كل أنثى في بناء بيتها

و يهلك فى الطريق إلى ذلك من يهلك من هذه العنيكبات

و من ينجو منها نفس المأساة التى تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة و وحشية و انعداما لأواصر القربى لأن أضعف بيت بيت غابت منه المودة و الرحمة:

فالأنثى تأكل الذكر عقب التلقيح و السفاد و الأبناء يأكلون أمهم بعد اشتداد عودهم

و يهرب منه الذكر خوفاً على حياته فهو بيت يقوم على المصالح و المنافع المادية الدنيوية المؤقتة

فإذا انتفت المصالح و انتهت المنافع ساءت العلاقة فيه بعد ذلك

فالأنثى تغازل الذكر و تغريه وترحب به و تتزين له عندما تحتاج إلى سفاده فقط و تحاول القضاء عليه بعد ذلك فيهرب الذكر حفاظاً على حياته من افتراس الأنثى و فكوكها القاتلة و السامة.

بيت يظل الصغار فيه هادئين مطيعين فى كنف الكبار حتى إذا اشتد عودهم و قويت فكوكهم وتوفرت سمومهم عقوا الكبار و عقروهم و أكلوهم و حيث أن الأب هارب من ظلم الأم فهم يأكلون أمهم

و هذا مثال للبيت الذي يطرد منه الابن أمه و أباه و قد يقتلهما لإفساح المكان لزوجته وأولاده.

*الجدير بالذكر أن كلمة العنكبوت وردت فى الآية الكريمة بصيغة التأنيث لا التذكير: ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:41]

فالعلماء لم يكتشفوا إلا مؤخرا أن أنثى العنكبوت هى من يقوم بفرز المادة الحريرية وجدل الخيوط وغزل الشبكة و كلمة ﴿اتَّخَذَتْ﴾لا تشير فقط إلى أنثى العنكبوت بل و إلى وجود عملية بناء حقيقية تقوم بها بغرض السكن و التفريخ

البيت والخيط:

*العنكبوت اتخذت بيتا مغايرا تماما فهو من خيط تنسجه أو تنتجه بنفسها و من داخلها فتنسج منه بيتا أشبه بشبكة الصيد(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)إن بيت العنكبوت هو من الناحية المادية البحتة أضعف بيت على الإطلاق لأنه مكون من مجموعة خيوط حريرية غاية في الدقة تتشابك مع بعضها البعض تاركة مسافات بينية كبيرة فى أغلب الأحيان

و لذلك فهى لا تقى حرارة شمس ولا زمهرير برد ولا تحدث ظلاً كافياً و لا تقى من مطر هاطل و لا من رياح عاصفة ولا من أخطار المهاجمين وذلك على الرغم من الإعجاز فى بنائها

وهنا إشارة صريحة إلى أن الوهن والضعف هو في بيت العنكبوت وليس في خيوط العنكبوت فخيوط بيت العنكبوت حريرية دقيقة جدا

يبلغ سمك الواحدة منها في المتوسط واحداً من المليون من البوصة المربعة أو جزءاً من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان و هي على الرغم من دقتها الشديدة فهي أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن و تعتبر الخصلات الحريرية التي تكون نسيج العنكبوت أقوى من الفولاذ

و لا يفوقها قوة سوى الكوارتز المصهور و يتمدد الخيط الرفيع منه إلى خمسة أضعاف طوله قبل أن ينقطع و لذلك أطلق العلماء عليه اسم "الفولاذ الحيوي" أو "الفولاذ البيولوجى"و هو أقوى من الفولاذ المعدني العادي بعشرين مرة و تبلغ قوة احتماله (300.000) رطلا للبوصة المربعة

فإذا قدر جدلا وجود حبل سميك بحجم إصبع الإبهام من خيوط العنكبوت فيُمْكِنه حَمل طائرة "جامبو"بكل سهولة

هذه الحقائق المدهشة تدفعنا للتساؤل عن كيفية التوفيق بين وهن البيت في الآية الكريمة وقوة المادة التي يبنى منها و كيف يجتمع في منشأة واحدة الحد الأدنى من الوهن والهشاشة والحد الأقصى من القوة و المرونة!؟

*هذه الحقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق فى زمن الوحى حيث لم تكتشف إلا بعد دراسات مكثفة فى علم سلوك حيوان العنكبوت استغرقت مئات من العلماء لعشرات من السنين حتى تبلورت في العقود المتأخرة من القرن العشرين ولذلك ختم ربنا تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله: (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

و على ذلك فإن الوصف القرآني لبيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت لم يكن نتيجة مشاهدة عابرة لبيت العنكبوت و هو يتمزق نتيجة الرياح العاتية و لم يكن من نسج خيال إنسان عكف على دراسة سلوكيات الحشرات في تلك الأزمان الغابرة إنه وصف نزل به الروح الأمين على لسان رسول كريم

في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل ألف وأربعمائة سنة فهو إذن سبقا علميا لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدرا غير الله حتى يبقى هذا الكتاب العزيز حجة على الناس كافة إلى يوم الدين

و يبقي ما فيه من الحق شاهداً على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق و شاهدا كذلك بالنبوة و بالرسالة للنبي الخاتم و للرسول الذي تلقاهﷺ

وليس العجب في أن نكتشف إعجازا علميا في زمن العلم والتكنولوجياو لكن العجب ممن لا يعقل هذه الآيات فيصر مستكبرا كأن لم يسمعها(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[لقمان: 7]

الرابط من موقع الكحيل

العنكبوت والملحد !

إنه تشبيه غريب انتقده الملحدون و لكن الأبحاث العلمية أثبتت دقة آيات القرآن لنقرأ هذا البحث ونحمد الله تعالى....

بيت العنكبوت بالفعل هو أضعف البيوت في الطبيعة ليس من الناحية البنائية فحسب بل من الناحية الاجتماعية أيضاً.

وهن البيت:-

بيت العنكبوت هو الأضعف على الإطلاق.

فجميع المخلوقات تبنى بيوتاً متينة وتتحمل عوامل الطقس إلا العنكبوت الذى يبنى بيته فى العراء وهو معرض لكل العوامل الطبيعية من مطر ورياح ورطوبة...و ربما نجد أغرب أنواع البيوت ما يخصّ عنكبوت الماء!عنكبوت الماء يقضى كل حياته تحت سطح الماء ليجمع فقاعات الهواء و يملأ بها بيته المنسوج على سطح الماء ويتنفس من هذا البيت

إن وجود شعيرات صغيرة تغطى جسم العنكبوت تساعده على تجميع فقاعات الهواء....

فانظروا معي إلى هذا البيت الذي هو عبارة عن فقاعات هواء تزول تحت أى تأثير!



يمكث عنكبوت الماء كل حياته تحت سطح الماء و يبنى بيته من الفقاعات!!

ولذلك فإن هذا البيت من أضعف البيوت فى الطبيعة حيث نجد أن كل الكائنات تبني بيوتها بشكل متين ومحكم ولكن عنكبوت الماء يبني بيته و لا يستمر إلا ساعات أو أيام ثم يتلاشى فيبنى غيره وهكذا ويعيش وحيداً طيلة عمره!

وهن الهندسة:-

يفكر العلماء في صنع كميات كبيرة من نسيج العنكبوت لاستخدامها كدروع واقية أو في صناعة الطائرات والصواريخ ولكنهم فشلوا لأن العملية تتطلب جمع كميات كبيرة من العناكب في مكان واحد لإنتاج هذا الكم الكبير من الخيوط.



ولكن عندما نضع عدة عناكب في مكان واحد تبدأ بأكل بعضها البعض!

فالعناكب لا تحب التعاون ولا تحب التضحية.

وهن الأسرة:-

الأم يمكن أن تأكل زوجها أو أولادها أو أي عنكبوت آخر مثل الأخ والأخت و الأب والأم...! إنها حياة مفككة لأبعد الحدود

تشبه حياة الملحد الذي فقد الإيمان بالخالق وأوكل أمره للدنيا.

و لو تأملنا اليوم دول الغرب وما تعانيه من تفكك أسري نتيجة فقدان الروابط الاجتماعية و الأسرية بينهم حتى إننا نجد الأب لا يعترف على ابنه و الابن ينكر أمه ... وهكذا.

وهن الحياة الاجتماعية:-

سمعنا كثيراً عن مجتمع النمل ومجتمع النحل ومجتمع الجراد...

ولكن المخلوق الوحيد الذي يعيش منفرداً هو العنكبوت ولا يعيش ضمن مجتمعات منظمة.

العنكبوت لا يحب التعاون ولا يحب التضحية أو الإيثار أو حب الخير للآخرين بعكس مجتمع النمل والنحل التي تدافع عن بعضها حتى الموت!

وهن الزواج:-

بعض أنواع العناكب مثل الأرملة السوداء فإن الزوجة تأكل الزوج بعد إتمامه عملية التلقيح!

ولذلك فإن الزوج يهرب على الفور.فتخيلوا معي هذه الحياة الزوجية التعيسة وهذا المصير الأسود للزوج.

يقول العلماء إن ظاهرة العنكبوت فريدة من نوعها في عالم الكائنات الحية.

أوجه التشابه بين الملحد و العنكبوت:-

- هناك 37000 نوع من العناكب تعيش على الأرض.
إن العلماء لا يزالون عاجزين عن تقليد خيط العنكبوت فهذا المخلوق لديه هندسة رائعة فى التصميم والبناء تماماً مثل(الملحدين)الذين اهتموا بالدنيا و أهملوا الآخرة فأعطاهم الله الدنيا وحرمهم من الآخرة.
-و يقول العلماء هناك تناقض عجيب فى خيوط العنكبوت
فعلى الرغم من أن خيط العنكبوت قوى جداً إلا أن بيته ضعيف جداً!!
كذلك الملحد تجده متناقضاً فى أفكاره:-فإذا سألته من الذى خلق الكون قال المصادفة
وإذا قلتَ له إن هذه السيارة مثلاً وُجدت بالمصادفة سخر منك!!
فكيف يتقبل عقله أن الكون وجد بالمصادفة وأن اختراعات بشرية بسيطة لا يمكن أن توجد بالمصادفة!
-العنكبوت يتمتع بنظر ضعيف.... فليس لديه بعد نظر:-
و لا يرى أكثر من سنتمترات معدودة تماماً مثل(الملحد)الذى لا يرى إلا الدنيا وهو عن الآخرة من الغافلين.
-العناكب مخلوقات شرسة و مفترسة.و معظمها سامة تبث سمومها لمن يقترب منها...
و كذلك (الملحد)[يبث أفكاره ليسمم المجتمع]و ليس غريباً أن نرى أعلى نسبة للانتحار في العالم بين صفوف الملحدين!.
حياة العنكبوت وحياة الملحد:-
أحبتي في الله! سوف نبتعد عن العبارات "العاطفية"فلا نقدح بالملحدين ولكن نسرد لهم حقائق علمية ونفسية لا يمكن إنكارها لندرك دقة المقارنة الإلهية بين الذين اتخذوا من دون الله أولياء وبين العنكبوت.
سوف نتأمل هذه الإحصائيات الغربية و هى بأقلام الملحدين أنفسهم ونقارن بين الضعف الذى يعيشه الملحد وبين وهن العنكبوت.
فالغرب اليوم في معظمه غير مسلم و هو مزيج من: -
الملحد و يشكل نسبة كبيرة – اللا دينى و نسبتهم كبيرة جداً –و مجموعة من الديانات الشركية –
و الجميع قد اتخذ من دون الله أولياء فجعل الدنيا همه وجعل الشيطان قدوته وجعل المال شريكاً لله تعالى وبالتالى تنطبق هذه الآية عليه بنسبة كبيرة.
هل تعلمون يا أحبتي أنه في دولة مثل أمريكا هناك 300 ألف جريمة اغتصاب كل عام(حسب وزارة العدل الأمريكية) وأنه هناك جريمة اغتصاب بمعدل كل دقيقتين !!!
تصوروا هذا المجتمع المفكك الذي هدم كل الروابط الاجتماعية ... تماماً مثل العنكبوت!
*هل تعلمون أن 17.6 % من نساء أمريكا تعرضن للاغتصاب مرة على الأقل فى حياتهن!
وهل تعلمون أن أكثر من 20 % منهن طفلات لم تتجاوزن سن 12 سنة!!
و هل تعلمون أن ربع طالبات الجامعة فى أمريكا تعرضن للاغتصاب أو محاولة الاغتصاب خلال فترة الدراسة
الإحصائيات تخبرنا أنه كل 15 ثانية هناك امرأة فى أمريكا يُعتدى عليها جنسياً أو بالضرب من قبل شريكها أو صديقها
و تخبرنا أيضاً أن 20 % من الفتيات يتم اغتصابهن فى سن المراهقة
و هل تعلمون أن حالات اغتصاب الأطفال تقدر بعشرات الآلاف سنوياً فى أكثر دول العالم تقدماً!!
وسبحان الله بعد كل هذا يتكلمون عن حالة زواج إسلامية لفتاة بعمر تسع سنوات أو عشر!
إنهم ينتقدون تعاليم الإسلام و ينسون نتائج إلحادهم التى جعلت المجتمع الغربى أكثر المجتمعات تفككاً.